

كلمة التحرير

في نهاية عام ١٩٨٤ دخلت مجلة (الآداب الأجنبية) مرحلة مهمة من التعاون الدولي مع نظيرتها مجلتي (الآداب الأجنبية - فسييفيت) الأوكرانية و (الآداب الأجنبية - أنوسترانيا ليراتورا) في موسكو .

فقد استقبلت المجلة في دمشق الرفيق ميكتنكو ، نائب رئيس المجلة الأوكرانية ، وهو صديق لسورية والعرب ، ومهتم بالمنطقة العربية قديماً وحديثاً ، وولده يفجيني مستشرق ألف كتاباً لطيفاً عن (ألف ليلة وليلة) ، وقد سعدت المجلة والاتحاد بزيارته ، وجرى تداول برامج غنية للتعاون بين المجلتين ، أهمها البدء بتعريف قراء كل جانب بالمجلة التي يصدرها الجانب الآخر ، وكذلك لهذا التعاون يرى القارئ في العدد الحالي مقالة عن (فسييفيت) كتبها الزميل ميكتنكو . ومن المأمول أن تفتح هذه العملية آفاقاً خصبة للتبادل والعمل المشترك .

كما قام رئيس تحرير (الآداب الأجنبية) السورية بزيارة إلى الاتحاد السوفييتي في كانون الأول ١٩٨٤ بدعوة من مجلة (أنوسترانيا ليراتورا) في موسكو . وقد هيأ الأصدقاء السوفييت كل ما من شأنه أن يجعل هذه الزيارة ناجحة ومثمرة من جهة ، ومعبرة ، من جهة أخرى ، عن حقيقة الروابط الودية العميقة التي تربط الكتاب السوفييت بالكتاب السوريين بوجه خاص والكتاب العرب بوجه عام ، وهي روابط تتم في إطار من الصداقة السوفييتية - العربية السورية ، شامل ومتين وضارب الجذور في التاريخ .

رئيس التحرير

وقد كشفت جلسات المباحثات مع الأصدقاء السوفييت عن استعداد غير مشروط للتعاون ، وعن اهتمام أصيل بالأدب العربي في سورية والثقافة العربية بوجه عام في ماضيها وحاضرها ، وذلك من خلال النهج السوفييتي المعروف بالاهتمام بالتراث الإنساني وبآداب الشعوب المكافحة ضد الإمبريالية وضد الظلم والاستغلال ، وفي سبيل سلام عالمي قائم على العدل والتفاهم بين الشعوب .

ومن المأمول أن تظهر تدريجياً نتائج خصبة لهذا التعاون ، وأن تستمر حلقاته من خلال تبادل الزيارات والخبرات والترجمات .

وقد كان لزيارة رئيس التحرير للاتحاد السوفييتي جانب مكمل للجانب الأدبي هو الجانب الإنساني والشخصي ، ومن خلال تفاعل هاتين الناحيتين يقدم رئيس التحرير ؟ لقطات من زيارته للاتحاد السوفييتي (يجدها القارئ منشورة في هذا العدد ، ولا يخفى على القارئ أن هذه اللقطات كتبت على طريقة (أدب الرحلات) ، ونظر إلى مسائل كثيرة من خلال لقطات فردية تفصيلية هدفت أحياناً إلى التشويق أو الدعابة ، ويجب أن تفهم كلها في سياق الصداقة السوفييتية - العربية السورية وفي سياق التعاون المزدهر بين أهل الفكر والأدب والفن في كلا البلدين .

وكذلك في سياق التقدير الصميمي لمنجزات الاتحاد السوفييتي في مختلف المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والتقنية وسواها .

كانون الأول ١٩٨٤

الدكتور حسام الخطيب

بيرسي بيش شيلي

موجز حياته وأعماله مع نبذة مختارة

من شعره ١٧٩٢ - ١٨٢٢

• د. أحمد مضر الصّقال

حياته وأعماله :

مقدمة :

موهبة شديدة التنوع ، والاتساع ، والعمق ، والحيوية ، ولعل
مجموعات الأشعار الطويلة والقصيرة التي كتبها ، لن تضاهي من حيث
التنوع ، في أشكائها وأساليبها ، ومن حيث الغنى بالخيال ، والرمزية .

ولكن شيلي ، لم يكن شاعراً فقط ، بل كان روائياً ، وكاتب مقالات ،
وفيلسوفاً يبحث عن الحقيقة ، كما كان مثالياً أحب الجنس البشري ، ومصلحاً
وقف ضد كل خطأ وجده في الأفكار الشائعة في السياسة والدين ، والفكر ،
والعادات .

السنوات الأولى :

* الطفولة والتعليم :

ولد بيرسي بيش شيلي في ٤ آب عام ١٧٩٢ ، في ميدلسكس ، أما

والده السير تيموثي شيللي^(٢) فواحد من أغنى أصحاب الأراضي ، وعضو في البرلمان .

وقد أحس شيللي بتميزه منذ الطفولة ، كما شعر باختلافه عن غيره بشكل قوي ، وكثيراً ما قال عن نفسه أنه روح سجين .

درس في أكاديمية سيون في ميدلسكس ، مع ابن عمه توماس ميدوين^(٣) ثم قضى ٤ سنوات في معهد أتون حيث لقب (شيللي المجنون) ، وفي عام ١٨١٠ قبل في معاهد جامعة أوكسفورد .

* أوكسفورد والأعمال الأولى :

صادف شيللي في أول أمسية له بقاعة الطعام في المعهد ، تلميذاً اسمه توماس هوج^(٤) ، وهو ابن محام لا يمارس المهنة ، وقد أعجب كلاهما برفيقه ، وأمضيا أوقاتهما معاً لدرجة الانزواء عن الآخرين ، وكان هوج يصف نفسه بأنه : « رجل قدماء على الأرض ويحب شيللي » .

وقد كتب شيللي حتى ذلك الوقت رواية قوطية قصيرة (زاستر وسي)^(٥) ١٨١٠ ، ومجموعة أشعار اسمها (الأشعار الأصلية لفيلكتور وكازير)^(٦) (شيللي وأخته اليزابيث) ١٨١٠ ، وكذلك رواية قرطبة ثانية (القديس ايرفين)^(٧) ١٨١١ .

Timothy Shelley. (٢)

Thomas Medwin. (٣)

Thomas Hogg. (٤)

Zastrozzi. (٥)

Original Poetry by Victor cazire. (٦)

St. Irvyne. (٧)

سعد شيلي بحريته ، وكان يرى أن ٤ سنوات هي وقت قصير غير كاف للقراءة ، والدراسة ، والاطلاع لذا فقد فوجئ ، وبفصله وهوج من المعهد في ٢٥ آذار ١٨١١ بعد أن رفضا الإجابة على أسئلة وجهت لها حول كتيب بعنوان (ضرورة الإلحاد)^(٨) كانا قد أرسلاه سراً إلى الأسقف ، وإلى رئيس الأساقفة ، وإلى عمداء الكليات . وبالإضافة إلى فصل شيلي من المعهد ، بسبب أفكاره ، فقد فسخت ابنة عمه خطوبتهما في عطلة الميلاد السابقة ، بعد الاطلاع على أفكاره في الرسائل التي كان يكتبها ، وبذلك فقد عانى شيلي من فقد حبه الجاد الأول .

في ٢٦ آذار غادر شيلي ، وهوج الجامعة إلى لندن ، ولكنها افترقا ، بعد إصرار شديد من والديهما ، وبعد أن وضع شيلي شروطاً خاصة على والده .

وانقطع حبل الود بين الأب وابنه ، ثم انقطعت كل علاقة بينهما بعد فرار شيلي مع هاريت وستبروك^(٩) وزواجه بها . ولم يتصل الأب بابنه بعد ذلك ، إلا عن طريق محاميه في لندن ، كما عاش بعده ٢٢ عاماً ، لكنه لم يسامحه أبداً ، ولم يفخر بشهرته المطردة الذبوع .

* زواجه من هاريت وستبروك :

كانت هاريت فتاة جميلة عمرها ستة عشر عاماً ، وفي نفس مدرسة أختي شيلي ، وقد تعرف بها شيلي ، فأعجبت بأفكاره ، وآرائه الراديكالية ، ومنحته الصحبة والتشجيع اللذين كان بحاجة إليهما ، وقد أحبها شيلي ، وهرب معها إلى ادنبرة ، حيث عقدا قرانهما حسب القانون الاسكتلندي في ٢٩ آب

١٨١١

The Necessity of A theism. (٨)

Harriet Westbrook. (٩)

وزارهما هوج هناك ، ثم استضافهما لديه في يورك ، حيث كان يدرس القانون ، وعندما أوقف والد شيللي اعتياد شيللي في المصرف ، سافر الأخير في محاولة لتدبر المال ، تاركاً هاريت عند هوج ، وقد حاول هوج اغتصابها ، فأخبرت شيللي ، وغادرا المدينة على الفور ، مع الزا شقيقة هاريت التي استدعتها هي .

سنوات في منطقة البحيرات :

استقر شيللي ، وعائلته في منطقة البحيرات ، آملاً ببقاء الشعراء الأكبر : (وورد زورث^(١٠) ، وكولردج^(١١) ، وساوثي^(١٢)) وقد قابل ساوثي ، فوجد أفكاره غير متحررة ، كما اعتقد عند قراءة شعره .

وتعرف على بيكوك^(١٣) ، الذي أصبح من أقرب أصدقائه ، وحمله فيما بعد على دراسة الكتاب الكلاسيكيين ، كما كتب إلى الفيلسوف وليام غودوين^(١٤) ، ٨١٢ ، معروفاً بنفسه ، وأخبره أنه قرأ كتابه (استفهامات حول العدالة السياسية)^(١٥) ، وتأثر بأفكاره كثيراً . وقد تعرف عليه ، ووجد الأخير في شيللي صفقة رابحة ، إذ استدان منه مبالغ كبيرة ، كان شيللي بدوره يستدينها من المرابين .

وقد زار ويلز ، وإبرلندا ، ودعا لإعطاء الإيرلنديين حرية فسخ معاهدة

Wordsworth. (١٠)

Coleridge. (١١)

Southey. (١٢)

Peacock. (١٣)

William Godwin. (١٤)

An inquiry Concerning Political justice. (١٥)

الوحدة مع بريطانيا العظمى ، وخلال هذه الفترة ، ازداد نضج شخصيته كرجل ، وكشاعر ، وأنهى ديوانه (الملكة ماب)^(١٦) ، أحد أكثر دواوينه تعبيراً عن أفكاره ، ولم يجرؤ ناشر على طبع هذا الديوان ، لذا طبعه بشكل خاص ، ووزعه لأصدقائه .

شب الخلاف بين شيللي ، وهارييت ، وتفاقم ، وفي ٢٨ تموز ١٨١٤ ، هرب مع ماري غودوين ، ابنة الفيلسوف غودوين ، وكان معها كلير كليرمونت^(١٧) ، ابنة زوجة غودوين من زوج سابق ، وقد عادوا بعد ٦ أسابيع لنفاد ما معهم من المال ، وتنقلوا بين عدة منازل ، واختبأ شيللي فترة لتفادي التوقيف ، بسبب ديونه ، (التي أعطى معظمها لغودوين) ، وفي ذلك الوقت ، ولدت ماري ابنها شارل . ورغم كل هذه الحوادث العاصفة ، فقد كان وماري سعيدين بحبهما ، وتحسن الوضع المادي ، بعد وفاة جده ١٨١٥ ، حيث وفي معظم ديونه ، وبقي له دخل سنوي مقداره ١٠٠٠ جنيه .

في نهاية صيف ١٨١٥ ، أبحر بالقارب ، في شهر التايمز حتى ليكلي ، وبعد عودته من الرحلة النهرية ، كتب أول أشعاره العظيمة فعلاً ، (ألاستور أو قرين الوحدة)^(١٨) ، ورغم أن بعض أشعاره التالية ، هي أعظم ، لكن ولا واحد منها أجمل . ويلاحظ أن هذا الشعر المرسل ، متأثر بميلتون^(١٩) ، وورد زوورث ، لكنه شيلليّ الروح بكل تأكيد ، ويلاحظ فيه غنى النغم اللفظي ، والخيال ، والاستعارات ، والرموز التي تختلف بشكل كبير عن (الملكة ماب) ، والتي أصبحت أسلوبه في التعبير . كما أدخل شيللي هنا أهم مواضيع

Queen Mep. (١٦)

Claire Clairmont. (١٧)

Alastor, or the Spirit of Solitude. (١٨)

Milton. (١٩)

شعره : الرؤية والملاحقة^(٢٠) ، وقد كرهه مع إضافات عديدة في (أدونيس)^(٢١) ، و (انتصار الحياة)^(٢٢) ، و (تراثيل إلى الجمال الذكي)^(٢٣) وفي (التكريس) من (ثورة الإسلام)^(٢٤) .

في عام ١٨١٦ سافر إلى شواطئ بحيرة جنيف بسويسرا ، حيث تعرف على اللورد بايرون^(٢٥) ، ونشأت بينهما علاقة حميمة ، وولد ابنه الثاني من ماري : ويليام ، ولكن كلير كليرمونت حملت من اللورد بايرون ، وأنجبت ابنة أسماها أليجرا^(٢٦) .

وعندما عاد شيللي إلى انكلترا ، تبين أن هاريت قد أغرقت نفسها ، فحزن حزناً شديداً ، وزاد ألمه عندما منعه اللورد شانسلور من أخذ ولديه .

وقد تزوج من ماري غودوين ، في كنيسة ميلدرد ، بوجود والدها .

كان جيمس هنت^(٢٧) ، قد كتب كتاباً عن الشعراء الشبان : كيتس^(٢٨) وشيللي ورينولدز^(٢٩) ، وقد شجع هنت صفات شيللي التحررية ، الشخصية

Vision Pursuit. (٢٠)

Adonais. (٢١)

The Triumph of Life. (٢٢)

Hymn to Intellectual Beauty. (٢٣)

The Dedication of The Revolt of Islam. (٢٤)

Lord Byron. (٢٥)

Allegra. (٢٦)

James Hunt. (٢٧)

Keats. (٢٨)

Reynolds. (٢٩)

والشعرية ، ودافع عن شعره وأفكاره ، وأسلوبه الشعري ، وأصبح صديقاً حميماً لشييلي بل إن شييلي اعتبره أعز أصدقائه .

ظل شييلي مدة طويلة يرغب في شراء منزل ، وفي الاستقرار ، وقد حقق هذا مرة واحدة ، إذ اشترى منزلاً في مدينة صغيرة ، وفرشه ، وقد استمرت سكناه فيه سنة واحدة ، هنا كان شييلي وماري يقرآن لبعضهما ، بصوت مرتفع في الأمسيات ، وهنا أحس شييلي بالتأثير الكامل للكلاسيكيات مما دفعه للتفرغ لها بشكل تام . وهنا وضعت ماري (تاريخ رحلة ستة أسابيع)^(٣٠) ، وكتبت كتابها المشهور (فرانكشتاين)^(٣١) ، طبع سنة ١٨١٨ ، وفي الشهر الستة الأولى كتب شييلي أطول أشعاره (لاون وسيتنا)^(٣٢) ، الذي غير اسمه فيما بعد إلى ثورة الإسلام ١٨١٨ ، وهنا ولدت طفلتها كلارا .

ولكن لم يكن الزوجان سعيدين تماماً ، حيث كانا ، وخاصة ماري يعانيان من ضيق وإرتباك لوجود كثير كبير موت ، مع ابنة بايرون ، وكان وضعها كاتسة تربي ابنة شخص آخر (كما ادعوا) غير معقول . وقد غادروا انكلترا إلى فينيسيا ، في آذار ١٨١٨ وقابلوا اللورد بايرون الذي رضي بأخذ الطفلة ليربيها كابنته ، ولكن على أساس ألا شأن له بوالدتها .

لحق بشييلي ناشره ، كي يجري بعض التعديلات في (لاون وسيتنا) ، وتتألف هذه التعديلات من : تغيير صلة القرابة بين لاون وسيتنا من أخ وأخت إلى لاون وبيمة يجبان بعضهما ، ويشاركان بنفس الأفكار عن الحرية وتخفيف حدة بعض التعابير الفاضحة حول الإله . وقد غير العنوان إلى (ثورة الإسلام) كعنوان أكثر ملاءمة .

History of asix Weeks Tour. (٣٠)

Fran Kenstein. (٣١)

Laon Cythna. (٣٢)

تتألف القصيدة من مقاطع شعرية سبنسرية ، وتجمع بين مواضيع (الملكة ماب) و (قرين الوحدة) ، حب الجنس البشري ، والشاعر الذي يموت شاباً . وقد قال شيللي في رسالة لغودوين أنه كتب الرسالة باندفاعه رجل ميت . وكان هدفه العام أن يقول لمعاصريه أنهم لا يجب أن يقتطوا لفشل الثورة الفرنسية ، حيث أنها ليست إلا واحدة من الثورات المتعددة ، التي يجب أن تقوم ، قبل أن يتم تغلب الخير في العالم على الشر .

لقد كان في القصيدة فيض زائد من الغموض ، والخيال الطبيعي ، ويظهر أن شيللي لم يكن في أفضل أوضاعه كشاعر قصصي ، ولكن في جزء كبير من القصيدة ، يظهر قوة وتنوعاً أكثر من أي مؤلف آخر .

سنوات إيطاليا :

توقفت العائلة في ميلانو ، كومو ، بيزا ، وأمضت شهراً في ليجهورن ، وقد أرسلت أليجرا إلى بايرون من ميلانو ، مع إحدى خادمتهم .

رغم أن كلير كانت ذات أهمية في حياة شيللي ، فقد تعقدت علاقتها مع بايرون ، بحيث أصبح حذفها منذ ذلك الوقت ضرورياً ، ويجب ملاحظة : أولاً أن شيللي كان دائماً شديد الحب لكلير ، التي عاشت معظم الوقت في منزله ، وثانياً أنها كانت خيالية ، وعصبية ، وعاطفية بشكل شديد ، أي كانت مناقضة تماماً لماري ، لذا لم يكن من الممكن أن تعيشا معاً سعيدتين ، وقد طلبت ماري من شيللي أحياناً أن يعمل على تأمين سكن كلير في مكان آخر . وثالثاً أن شيللي اضطر أن يكون وسيطاً بين كلير وبايرون ، وهو واجب مؤلم ، استطاع شيللي أن ينجح فيه بكثير من التعقل ، والتفهم ، والدقة .

وقد حمل قلق كلير على أليجرا شيللي أن يسافر إلى فينيسيا ليقابل بايرون ، في حين بقيت هي في بادوا ، وقد سر بايرون بلقائه ، ومنحه فيلته

الكابوشيني في ايست للسكن ، فكتب شيللي إلى ماري طالباً منها المجيء إلى هناك فوراً ، وقد أجابت طلبه ، لكن طفلتهما كلارا ماتت نتيجة ذلك ، وقد لامت ماري سرّاً شيللي وكلير لهذه الفاجعة . وقد أدت العلاقات المتوترة بينهما ، والبرود الطارئ عليها إلى تغيير شيللي لمجموعة من أشعاره ، ومنها (سطور كتبت في التلال اليجونية)^(٣٣) والتي وصفها شيللي بكلماته : « أكثر أشعاري حزناً أتذكرها في تلة واحدة » ، ولن تعود ماري فتكون الألف الأليف ، والزوجة اللامعة ، التي خاطبها في (التكريس) من (ثورة الإسلام) ، ولم تلحظ ماري حتى وفاة شيللي كم أصبحت تمثل بالنسبة له (شعاع القمر البارد) وكان ندمها شديداً ، كما يظهر من قصيدتها (الاختيار)^(٣٤) .

حدثت أشياء أفضل في ايست ، حيث كتب شيللي أول فصل من (بروميثيوس طليقاً)^(٣٥) ، ودخل فترة أعظم إنجازاته كشاعر .

قضى شيللي وأسرته الشتاء في نيبال ، حيث تحولوا في يوميي ، سورنتو ، جبل فيزوف ، وزاروا المتاحف ، وقد كتب شيللي رسائل سفر رائعة إلى بيكوك ، ولكن بقيت روح الإبداع كامنة لدى شيللي ، فلم ينتج شيئاً آخر ، وعادت روح الإبداع له ثانية ، في روما من آذار لتموز ١٨١٩ ، وبين الأثار المتبقية من حماسات كاراكالا كتب الفصلين الثاني والثالث من (بروميثيوس طليقاً) وبدأ في (سنسي)^(٣٦) . لكن سوء الحظ لم يفارق شيللي ، حيث توفي ابنه بعمر ٣ سنوات ، ودفن فيما هو الآن القسم القديم من المقبرة

Lines Written Among The Euganean Hills. (٣٣)

The Choice. (٣٤)

Prowetheus Unbound. (٣٥)

The Cenci. (٣٦)

الإنكليزية البروتستانتية ، التي قال شيلبي فيها مرة أن جمالها : « قد يوقع المرء في حب الموت » .

في تموز غادروا روما ، فأمضوا الصيف في مونتنيروا ، حيث أنهى شيلبي (سنسي) بسرعة فائقة ، وذهبوا إلى فلورنسة في تشرين الثاني ، حيث ولدت ماري ابناً سميها (بيرسي فلورنسة) ، وهو ابنها الوحيد الذي بقي على قيد الحياة ، ويقوا هناك حتى آخر كانون الثاني ١٨٢٠ ، وانتقلوا إلى بيزا حيث اجتمع حولهم مجموعة من الإنكليز ، والإيرلنديين ، والإيطاليين ، واليونانيين ، وانضم لهم بايرون في تشرين الثاني ١٨٢١ .

وقد دفع موت النجرا ابنة بايرون في نيسان ١٨٢٢ عائلة شيلبي ، وعائلة ويليام ، لبدء تصيفهم على الشاطئ ، بشكل فوري ، وياكر ، لإبعاد كلير قبل أن تسمع بفقدانها المريع . وسكنوا في فيلا على شاطئ سبيزيا في ٨ نيسان .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الوفاة :

أبحر شيلبي في ١ تموز في بخته الأنيق مع ويليام ، إلى ليجهورن ، ليستقبل هنت وزوجته وأولاده ، ويساعدهم على الوصول لفيلا بايرون في بيزا ، ويقوم ببعض الترتيبات العملية مع بايرون ، فيما يتعلق بـ (الحر)^(٣٧) ، وهي دورية رغب بايرون في إصدارها ، واستدعى هنت - عن طريق شيلبي - إلى إيطاليا ليطبعا . وفي رحلة العودة ، في ٨ تموز ، هبت عاصفة أغرقت القارب ، وغرق شيلبي وويليام .

وقد قام تريلوني (أحد أصدقائه في بيزا) باستعادة الجثة ، وأحرقها على الشاطئ ، ثم أرسل الرماد إلى روما للدفن في القسم الجديد من المقبرة

البروتستانتية ، وعندما زارها استاء منها ، فاشترى قطعة أرض أمام الحائط الروماني القديم ، وسورها ، وزينها بشجر السرو والغاروبنى فيها ضربحين . نقل رماد شيللي لأحدهما واحتفظ بالآخر لرماده .

وقد قررت ماري بعد وفاة زوجها أن تفرغ حياتها لتنظيم ، وحفظ وطبع مخطوطات شيللي ، ولكتابة سيرته الشخصية . وفي عام ١٨٢٤ ، طبعت (أشعار ما بعد الوفاة)^(٣٨) ، وقد منع السير تيموثي والد شيللي الطباعات التالية حتى عام ١٨٣٩ .

الأعمال الناضجة :

لم يؤلف شيللي خلال السنوات التي قضاها في إيطاليا فقط أشعاره العالمية المعروفة (إلى قيرة)^(٣٩) و (قصيدة إلى الريح الغربية)^(٤٠) ، و (السحاب)^(٤١) ، ولكن أيضاً مجموعة من الأشعار الضخمة ، حيث تكمن عظمتها الحقيقية ، وهي :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

روزالند وهيلين^(٤٢) (١٨١٧ - ١٨ - ١٨١٩) .

جولييان ومادالو^(٤٣) (١٨١٤ - ١٨٢٤) .

بروميثيوس طليقاً^(٤٤) (١٨١٨ - ١٩ ، ١٨٢٠) .

ساحرة الأطلس^(٤٥) (١٨٢٠ ، ١٨٢٤) .

Posthumous Poems. (٣٨)

Toaskylark. (٣٩)

Ode to the west Wind. (٤٠)

The Cloud. (٤١)

Rosalind & Helen. (٤٢)

Julian & Maddalo. (٤٣)

The Witch of Atlas. (٤٤)

- أوديب الطاغية^(١٥) (١٨٢٠) .
 ابسيكيدون^(١٦) (١٨٢١) .
 أدونيس (١٨٢١) .
 هيلاس^(١٧) (١٨٢١ ، ١٨٢٢) .
 انتصار الحياة^(١٨) (أجزاء ١٨٢٢ ، ١٨٢٤) .

التواريخ هي لتأريخ التأليف والطباعة

بروميثيوس طليقاً :

دراما غنائية ، وهي أعظم أشعاره ، ويعتقد كثير من أنها أعظم قصيدة طويلة في الإنكليزية ، منذ (النعيم المفقود)^(١٩) للميلتون .
 وهي أسطورة حديثة القيمة في زمن عالم الفلك ، مثلما كانت الأسطورة القديمة ، كما عاجلها المؤلف الدرامي اليوناني أسخيلوس ، قيمة في زمن تأليفها .

ورغم أنها يمكن أن تقرأ كقصة ممتعة ، لكنها في أجزائها ، وككل ، رمز محكم لانتصار مبدأ الخير الكلي (بروميثيوس) على مبدأ الشر الكلي (جوبيتر) .

Oedipus Tyrnnus. (٤٥)

Epipsychidion. (٤٦)

Hellas. (٤٧)

The Triumph of Life. (٤٨)

Paradise Lost. (٤٩)

ويغيب عن كثير من القراء عالمية الموضوع ، لأن لد سبباً معرفة
بروميثيوس كرجل ذي فكر إنساني ، وبطل للجنس البش إنه كذلك
بالطبع ، لكنه أكثر : إنه بطل الآلهة أيضاً ، وبطل كل ما هو جيد .

إن القصيدة تهدف أن تثبت في الذهن (المشاليات الجميلة للأخلاق
المتنازة) من خلال الخيال والقلب ، وليس من خلال المنطق .

وإن تنوع وجمال الأشكال الشعرية ، لا يوجد ما يقاربه في مكان آخر .
وقد وصف الفصل الأخير وكتب كنوع من التفكير التالي في كانون الأول
١٨١٩ ، كأعظم تفجر غنائي في الشعر .

سنسي :

وهي مختلفة بشكل مدهش عن (بروميثيوس طليقاً) ، وهي أعظم
مأساة لتلك الفترة ، والعمل الوحيد لشيللي الذي طبع طبعة ثانية في أثناء
حياته ، وبالإضافة لذلك فهي العمل الوحيد الذي يتعامل فيه شيللي مع
أشخاص حقيقيين . وإن الأسلوب المباشر ، العاصف غير المزوق ،
والشخصية النبيلة لبياتريك ، ووحشية سنسي ، هي تباين حاد مع الزخرف
الفني للشخصيات الأثرية في (بروميثيوس طليقاً) وغيرها من أشعاره .

كتب شيللي المسرحية للمسرح ، وكان من الممكن أن تستقبل بسرور ،
لولم يجعل موضوع الفسق بمحرم ، عرضها للجماهير مستحيلًا في أيامه .

لقد تعلم شيللي كثيراً عن الإنسان كما هو ، وعن أساسيات الأسلوب
والبناء الدرامي . وقد شجعت ماري شيللي أن يبحث عن التقبل الجماهيري
بأشياء أخرى مثل (سنسي) ، وقد سخر شيللي منها بلطف في (ساحرة
الأطلسي) .

ابيسيكيديون :

تعتبر عادة كأعظم شعر في الحب بهذه اللغة ، ومن الواضح أن شيللي كان يخطط لقصيدة عن حياته الروحية ، حين عرف وعائلته بفتاة إيطالية جميلة تدعى تيريزا فيفياني^(٥٠) ، متحمسة ، شاعرية فلسفية ، في التاسعة عشرة من عمرها ، وضحية ظلم الأهل ، وأبوها نبيل وحاكم بيزا ، وضعها في دير حتى يتمكن أن يعثر لها على زوج .

وقد انطلق شعر شيللي ، وتغير اتجاهه ، حيث شعر أنه عثر أخيراً على المرأة الكاملة ، تجسداً للعذراء المثلثة في (الأستور أو قرين الوحدة) ، للجمال الذكي .

والشعر الذي كتبه شيللي في حالة تخدير تقريباً ، يتألف من ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول يخاطب اميليا ، ويتضمن في سطور بسيطة ، وفصيحة مبادئه في الزواج والحب الحقيقي .
<http://Archivebeta.Scribd.com>

الجزء الثاني يتابع حياته الروحية ، وهو أكثر أشعاره إظهاراً لموضوع الرؤية والملاحقة . وهو يختلف عن الأستور ، بأن الشاعر الآن لا يتابع رؤية الجمال الذكي ، لكن يتابع واحداً بين الناس ، يجسد الميزات الأساسية لهذه الرؤية المقدسة . إنها تجارب تجري مع واحدة (كانت لمستها مثل سم كهربائي) وأخريات ، حتى أنقذته ماري التي آزرته وقت مقاساته من انتحار هاريت ، ثم جاءت اميليا ، الفتاة الكاملة . وفي مقطع جميل ، مستعار من ميلتون ، يشبه شيللي نفسه بالأرض التي يتحكم فيها (كرتا الضوء التوأم) الشمس والقمر (اميليا وماري) .

والجزء الثالث فيه دعوة إلى اميليا ، لتعيش معه في فردوس أرضي ،

على جزيرة يونانية منعزلة .

وفي بعض الأبيات المتضمنة ، يرسل شيلبي شعره كدعوة لأصدقائه ،
ليشاركوه في نظام اجتماعي كامل ، يحكمه المنطق ، وأعلى مثاليات الحب .
لقد ابتدع شيلبي كلمة ابيسيكيديون ، وشرحها في شعره على أنها :
« تلك الروح الخارجة من روحي » .

ومع القصيدة يجب قراءة مقطوعته الشريفة (عن الحب) التي تعطي
نظرة الأوسع حول الحب . ويجب ملاحظة أن القصيدة هي في ثنائيات على
التفعيلة ، وهي خماسية التفعيلة ، وتحرك بسرعة ، وانسياب نادري المثال .

أدونيس :

يعتبرها شيلبي أكثر أشعاره كمالاً ،
حينما سمع شيلبي بوفاة كيتس^(٥١) في روما (٢٣ شباط ١٨٢١) هزه ذلك
بعمق ، ليس بسبب الزوال الجسدي لصديق فقط ، بمقدار ما كان بسبب
الفقد الباكر لشاعر عانى الإهمال والإساءة ، مثلما عانى شيلبي نفسه .

وفي تأمل متمهل للشكل الملائم لإظهار هذا الفقد ، اختار شيلبي المراثة
الرعبوية الكلاسيكية . ورغم أنه اتبع البناء المتوارث ، واستخدم التفاصيل
المقترحة من الشعراء الكلاسيكيين (خاصة ميلتون في ليسانس^(٥٢)) ، بشكل
واضح ، فقد كون شيلبي قصيدته من ٥٥ مقطعاً شعرياً سبنسرياً^(٥٣) ، بانفعال
محموم في الأيام الأولى من حزينان ، وفيها بذل كل فنه ، وقد طبعت في بيزا
تحت إشرافه الشخصي ، إذ قرر أن يقدم للجمهور ، قصيدة خالية من

Lycidas. (٥١)

Spenserian Stanzas. (٥٢)

الإصلاح ، ومن الآراء السياسية ، الدينية ، والاجتماعية المخالفة لهم ، وحين ظهر أن النقد ظل متبلداً تجاهه ، ومثلما كان دوماً ، كان شيللي شديد الاعتراض ، لحد أنه وجد محالاً أن يكتب ثانية لمدة ليست بالقصيرة .

والأبيات التالية ، هي بداية الأجزاء الأربعة للقصيدة ، حيث الجزء الرابع إضافة للبناء التقليدي :

البيت الأول : إنني أبكي أدونيس ، فهو ميت ! / أواه ، أندب أدونيس .
البيت الثامن عشر : انعكاسات على الحياة والموت ، موت الشتاء ، وتجدد الحياة ، الفرح ، وجمال الربيع .

البيت ٣٨ - ٣٩ : الغساريؤول للغباء ! لكن الروح النقية ، سوف تسري عائدة إلى النبع الذي جاءت منه . . .
السلام ، السلام ، إنه ليس ميتاً ، إنه لا ينام / لقد أفاق من حلم الحياة .

البيت ٤٧ : من يبكي على أدونيس ؟ أواه ، أقبل / أيها المحب التعس ! واعرف نفسك ، واعرفه بشكل تام ، إن الحقيقة مدفونة ضمن اللحد .

هياس :

كتبت بمناسبة اندلاع الثورة اليونانية (١٨٢١) ، ورغم أن شيللي سهاها مجرد (ارتجال) إلا أنها أكثر من ذلك ، وأن ثلاثة من أناشيد الكورس فيها مشهورة .

انتصار الحياة : (جزء فقط)

وكانت القصيدة الكبرى الأخيرة لشيللي ، وهي متأثرة بـ (انتصارات)^(٥٣) لبترارك^(٥٤) ، خاصة (انتصار الحب) وتعكس الفلسفة التي ظهرت أولاً في (أدونيس) بأن العالم المسمى الحقيقي هو عالم الوهم ، ويؤكد أن الجميع هم ضحايا الحياة ، ما عدا سقراط والمسيح .

ورغم أن القصيدة ، تتوقف بتلك الصرخة المتقدمة لكل حياته (إذن فما هي الحياة ؟) إلا أنها لا تترك القارئ دون أمل . وثانية فإن موضوع الرؤية والمتابعة ، يجعل الشخص يحس بوجود المثال ، ويدفعه لملاحقته ، حتى لو كان خلف اللحد .

لا يجب أن ننسى أن شيللي كتب كمية كبيرة من الشعر ، وفيها شرح أفكاره بوضوح أكثر من شعره ويظهر (نظرة فلسفية في الإصلاح) (١٨١٩ - ٢٠ ، ١٩٢٠) ، طريقة معقولة للإصلاح العملي .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ومعظم نشره مجتزعات ، وحتى (تحدي الشعر) الشهير ، ليس إلا أول جزء من مخطط لثلاثة أجزاء ، ومن ناحية قوة التحليل ، وجمال التعبير ، فإن (التحدي) لا يضاهي ، ولسوء الحظ فهو لم يطبع حتى عام ١٨٤٠ .

ورغم تعطش شيللي للشهرة ، فإن شعره لم يستطع أن يصبح شائعاً ؛ لأنه يخاطب (الخيال شديد النقاء ، لطبقات مختارة من قراء الشعر)

Triumphs. (٥٣)

Petrarch. (٥٤)

نبذ مختارة من شعره :

١ - فلسفة الحب

تمتزج الينابيع بالنهر
وتختلط الأنهار بالمحيط ..
وتظل رياح السماء تمزج إلى الأبد
بانفعال حلو ، وجميل ..
في كل العالم لا يوجد شيء وحيد
كل الأشياء تظل تمزج
واحداً مع الآخر وفق قانون إلهي
لماذا لا نتعانق نحن ، أنت ، وأنا ؟ ..
انظري الجبال تقبل السماء العالية
وكذلك تعانق الأمواج بعضها
ولن يغفر لأي زهرة أخت
إذا تكبرت على أخيها
هذا ضوء الشمس يحتضن الأرض
وشعاع القمر الفضي يقبل البحر
ولكن ماذا تساوي كل هذه القُبل
إذا أنت لم تقبليني .. ؟ ..

٢ - نحيب

آه أيها العالم .. آه يا حياة .. آه يا زمن ..

أيها الزمن الذي أتسلق آخر درجاته . .
مرتعشاً في نفس المكان الذي كنت أقف فيه من قبل ثابتاً
متى يعود بهاء فجرك ؟
لن يعود - أواه لن يعود أبداً ! . .

خارج الليل والنهار
طارت البهجة وخلفتني
في الربيع النضر ، والصيف ، والشتاء الجلف
أيتحرك قلبي الضعيف بأسى . . ولكن بإشراق
لن يتحرك - أواه لا لن يتحرك بإشراق أبداً

إني أخاف قبلاتك أيتها العذراء اللطيفة ،
أما أنت فلا يجب أن تخافي من قبلاتي
إن روحي شديدة العمق ، مشحونة بالعاطفة
بحيث لن تستطع قط أن ترهق روحك

إني أخاف صورتك ، أخشى أغانيك ، أرهب حركاتك .
أما أنت فلا حاجة بك إلى خوفي
طاهر حب قلبي
الذي أقدم به قلبك

الموسيقى . . عندما تموت الأصوات المخملية
تردد في الذاكرة . .
الروائح العطرة ، حين تمرض البنفسجات الحلوة
تعيش في الإحساس الذي استثارته
أوراق الورد ، حين يموت الورد

تجمع من أجل سرير الحبيب
وكذاك أفكارك عندما تمضين
الحب بنفسه سوف يغفو عليها

٣ - حلم الشاعر

على شفاه شاعر غفوت . .
حالمًا مثل حب رائع . .
في الصوت الذي تحبسه أنفاسه
لا يبحث أو يجد من أجل سعادة أرضية
لكنه يعيش على قبل أثرية
من أشكال تلازم قفار الأفكار . .
إنه سيتأمل من الفجر حتى الإظلام . .
ضوء الشمس المنعكس في البحيرة
والنحللات الصفراء في اللبلاب المزهر
لا يهتم أو ينظر إلّا هذه الأشياء تكون
ولكنه من هذه المخلوقات يستطيع
أن يبدع مخلوقات أكثر واقعية وجوداً من الإنسان الحي
إنها أطفال الخلود

٤ - تخليق الحب

عندما يحطم المصباح
يقع الضوء في التراب ميتاً

عندما تتبدد الغيمة
يختفي بهاء قوس قزح
عندما يكسر العود
لا تعود النغمات الحلوة تذكر
وعندما تسكت الشفتان
سرعان ما تنسى اللهجة المحبوبة

كما أن الموسيقى والبهاء
لا تبقى بعد العود والمصباح
لا يعطي صدى القلب
أي أغنية عندما تكون الروح خرساء
لا أغنية عدا بعض المراثي الحزينة

مثل عواء الريح في غرفة خربة
أو مثل صوت الأمواج الباكية
التي تفرع جرس جنازة البحار الميت

عندما تمتزج القلوب مرة
يفادر الحب أولاً العش المتين البنيان
ويبقى الضعيف ليتحمل بمفرده
ما كان يملكه دات يوم
أيها الحب .. ! الذي يندب
ضعف كل الأشياء هنا ،
لماذا تختار الأكثر وهناً وضعفاً
من أجل مهدك ، منزلك ، وتابوتك ؟ ..
سوف تهزك عواطف الحب

كما تهب العواصف العقبان في الأعالي
المنطق الناصع سوف يهزأ بك
كما الشمس تهزأ من سماء شتائية
سبوف تتعفن جميع الأخشاب
في عشك الخرب ، ومترل النسر ، مترلك
سوف يتركك عرباناً ليضحك
عندما تساقط الأوراق ، وتهب رياح باردة

٥ - سطور إلى هواء هندي

أفقت من أحلامي بك
في أول غفوتي الحلوة بالليل
بينما تتنفس الرياح بلطف ،
وتضيء النجوم ، وتشتع

أفقت أنا من أحلامي بك . .
وقادتي روح في قدمي
ومن يدري كيف حصل ذلك ؟
إلى نافذة غرفتك ، حلوتي !

النسمات المتقلبة تنهاوى
على الظلمة ، الجدول الساكن
أشداء الزئبق تناثرت
مثل خواطر حلوة في حلم . . .
وشكوى الهزار . . .
قد ذاب فيها قلبه

كما يجب أن أذوب فيك ..

أيها المحبوب كما أنت ..

أواه .. ارفعيني عن الأعشاب

إنني أموت ... أضعف ! أقع ! ...

دعي حبك في قبل قطرات المطر

يأتي إلى شفتي ، وإلى جفوني الشاحبة ،

إن وجنتي باردة وصفراء .. وأسفاه

قلبي يدق عالياً وبسرعة

آه .. اضغطيه .. اجذبيه لقلبك ثانية

حيث سوف يتكسر .. حين تأتي نهايته



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هل أنت شاحب من التعب

من تسلق السماء ، والتحديق إلى الأرض

والتجوال دون صاحب

بين النجوم ذات المولد المختلف عنك

ودائم التغير ، مثل عين غير فرحة

لا ترى شيئاً يستحق التوقف عنده

طائر جلس يندب ألفه الميت

على غصن شتائي

تزحف فوقه الريح الصقيعية

والجدول المتجمد بالأسفل

لم يكن هناك ورقة على عرى الغابة
ولا زهرة على الأرض
ليس إلا حركة طفيفة في الهواء
ما عدا صوت دولاب الطاحون

٨ - أوزيياندياس المصري

قابلت رحالة من أرض أثرية
قال لي : تنتصب في الصحراء
ساقان ضخمتان من صخر ، دون جسد
وقربهما فوق الرمال ، يوجد
وجه محطم نصف غريق ،
يدل عبوسه ، وجعده شفقه
وهزه الأمر البارد فيها
بأن النحات قرأ هذه الانفعالات بصدق
والتي بقيت ، راسمة على هذه الأشياء الميتة
اليد التي صنعتها ، والقلب الذي غذاها
وعلى القاعدة تظهر تلك الكلمات :
« اسمي أوزيياندياس ، ملك الملوك ،
انظر لأعمالي ، أيها الجبار ، واليائس ! »
لم يبق شيء حواله ، أبداً
وحول خرابة هذا الحطام الضخم ، تمتد عارية ، ودون حدود
الرمال الوحيدة ، والمستوية . . تمتد بعيداً

٩ - ترتيلة إلى روح الطبيعة

يا حياة الحياة إن شفتيك تشعلان
بحبهما ، النفس الذي يمر بهما
وبسماتك قبل أن تغيب
تحمل الهواء البارد نارا ، ثم تحبها
في تلك الأقفال ، حيث من نظرها
أغمي عليه ، واقعا في شرك متاهاتها

يا طفلة الضياء ، أطرافك تلتهب
خلال الغطاء الذي يظن أنه يحجبها
مثلما خيوط الصباح المشعة

عبر النجوم الرقيقة ، قبل أن تغربها
وهذا الجو الإلهي يحيط بك
في كل مكان تشعر به

جميلة الأشياء الأخرى ، لا أحد يلاحظك
لكن صوتك يبدو منخفضاً وحنوناً
مثل أجملها ، لأنه يحفظك .

من النظر ، ذلك البهاء السائل ،
وكلهم يشعرون ، لكنهم لا يرون
كما أشعر الآن ، أنهم يفقدونه للأبد .

يا سراج الأرض ! حيثما تحركت
تكتسي الأشكال الباهتة لمعاناً
وتتحرك الأرواح التي تحبها

فوق الرياح حرة خفيفة
حتى تسقط كما أسقط أنا الآن
دائخة ، ضائعة ، لكن غير آسفة

- ١٢ -

كلمة واحدة تنتهك بشكل أكثر
علي من أن أنتهكها
إحساس واحد يزدرى خطأ بشكل أكثر
عليك من أن تزدريه
أمل واحد شديد الشبه باليأس
بحيث لا تكبح جماحه الحكمة
والشفقة منك أكثر غلاوة
عندي من شفقة غيرك

لا أستطيع أن أمنحك ما يسميه الناس الحب
لكن هل ترفضين
التقديس الذي يرفعه قلبي
ولا ترفضه السماء :
رغبة الفراشة بالنجوم
والليل بالغداة
الانقطاع لشيء أبعد
من محيط آلامنا

١٠ - أبيات كتبت في ديجيكشن قرب النيبال

الشمس دافئة ، والسما صافية
والأمواج ترقص سريعة ولامعة ،
والجزر الزرقاء ، والجبال الثلجية
ترتدي ضوء الظهيرة الأرجواني الشفاف . .
أنفاس الهواء الرطب رائقة
حول براعمه غير المتفتحة
والأصوات الفرحة ، مثل الأصوات الأخرى ،
الرياح ، والطيور ، ومد البحر
وحتى صوت المدينة ناعم كما في العزلة
رأيت أراضي (ديب) التي لم تطأها قدم
ويتبعثر فيها تنبع البحر الأخضر والقرمزي ،
رأيت الأمواج ترغمي على الشاطئ
مثلما يومض الضوء الذائب في إشعاع النجوم
جلست وحيداً على الرمال
ووميض تيارات المحيط
يلمع حولي ، وهناك نغمة حلوة
تصدر من حركته المحسوبة بدقة ،
كم هذا جميل ! وهل يقاسمني أي قلب انفعالي ، الآن .
وا أسفاه ، ليس لدي أمل ، ولا صحة ،
لا سلام بنفسي ، ولا هدوء حولي . .
ولا الرضى الذي يناله الحكيم من التأمل

ويراه متفوقاً على الثروة
وأمشي بعظمتي الذاتية ، والتي تكافأ :
لا شهرة ، لا قوة ، لا حب ، ولا سرور ،
التي أراها تحيط بآخرين
يتسمون لأنهم يعيشون ، ويقبلون على مسرات الحياة
لكن بالنسبة لي ، فقد ملئ هذا الكأس بأسلوب آخر ..
ومع ذلك حتى اليأس نفسه ضعيف الآن
وإنني ، كما الرياح والمياه
أستطيع أستلقي كطفل تعب
وأبعد عني حياة الهموم
التي تحملتها ، والتي يجب أن أحتملها
حتى يأتي الموت - كالنوم - ليسرقي
وربما أحسست في الهواء الدافئ ..
بوجنتي تبرد ، وسمعت البحر
يتنفس فوق دماغي الميت آخر حركاته الرتيبة

المراجع والمصادر

* موجز حياته ، وأعماله ، مأخوذ بتصريف عن : الانسيكلوبيديا
بريتانیکا ١٩٧٥ (الجزء ١٦)

Encyclopedia Britannica (Vol. 16).

* نبد مختارة من شعره : الكنز الذهبي ١٩٦٥ (فرنسيس بالجريرف)

The Golden Treasury 1965 (Francis Turner Palgrave)

رقم القصيدة في الكنز الذهبي

رقم القصيدة

٣٠٧	١٨٥	١
	٢	
	١٧٩	٣
٣١٣	٤	
	٢٩٩	٥
١٩٥	٦	
	١٧٦	٧
٢٧٥	٨	
	٢٧٥	٩
٢٥١	١٠	
	٢٨١	١١
٢٠١	١٢	
	٢٢٧	١٣

حول الأسس البيولوجية للطاقات اللغوية

تقديم وترجمة: د. مازن الوعر

مقدمة :

تعتبر الدراسات اللسانية البيولوجية من الحقول المهمة في المعرفة العلمية الحديثة في الغرب والشرق . وتأتي أهمية هذه الدراسات من العلاقات التجريدية المكتبة التي تربط الفاعليات البيولوجية اللغوية بالفاعليات البيولوجية الأخرى في الدماغ البشري .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

والواقع نحاول الدراسات والمناهج العلمية الحديثة معرفة طبيعة هذه العلاقات وفلسفتها فلسفة تجريبية علمية قائمة على المواد والعينات المرئية التي يمكن لها أن توصل العلماء إلى العمليات الجارية في الدماغ ، تلك العمليات التي لا يمكن رؤيتها على الإطلاق .

يشكل عنوان هذا البحث (On the Biological Basis of Language Capacities)

فصلاً من مقدمة كتاب كان ألفه عالم اللسان الأمريكي نعوم تشومسكي أستاذ علم اللسانيات الحديث في معهد ماستونست للتكنولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٠ وعنوان هذا الكتاب هو (Rules and Representations) ونعيد نشر هذا الفصل مترجماً بتصريف إلى العربية وذلك بإذن من المؤلف . هذا وقد نوقش هذا البحث في الدورة العالمية السابعة لللسانيات المنعقدة في جامعة محمد الخامس بالرباط - المغرب ما بين ٢٨ تموز و ٢٠ آب ١٩٨٢ .

إن النظريات والمناهج البيولوجية اللغوية التي تدور مناقشتها في عالم اليوم ستثمر بلا شك نتائج نظرية مهمة يمكن أن تطبق في مجالات لغوية عديدة^(١) . وبما أن علم اللسان البيولوجي يرتبط ارتباطاً عضوياً بعلم النحو التوليدي والنحوية ولا سيما في نظريته الأخيرة التي وضعها عالم اللسان الأمريكي نعوم تشومسكي عام ١٩٨١ والمسماة بـ Government and Binding Theory أو : (نظرية العامل والربط الإجمالي) ، فإنه من المهم حقاً معرفة طبيعة هذه العلاقات القائمة بين الأسس البيولوجية وبين الطاقات اللغوية العاملة عليها . هذه العلاقات البيولوجية اللغوية كان قد شرحها وفصلها نعوم تشومسكي في دراسات وبحوث كثيرة كان قد كتبها .

والواقع ، يعتبر هذا البحث الذي نحن بصدد تقديمه وشرحه من ضمن البحوث اللسانية البيولوجية المهمة التي كان قد قام بها تشومسكي ، لذلك من المفيد للقارئ العزيز أن يعرف شيئاً ما عن هذه البحوث الجديدة والحديثة ولا سيما وأن علم النحو التوليدي والنحوية قد بدأ يأخذ مكانه في العالم العربي على الرغم من أنه ما زال يُقدّم بشكله الكلاسيكي ، ونعني بذلك النموذج الذي وُضع عام ١٩٥٧ والنموذج المعياري الذي وُضع عام ١٩٦٥ ثم النموذج

(١) لمزيد من الاطلاع على هذه الأهداف النظرية والتطبيقية لعلم اللسان البيولوجي يمكن للقارئ الرجوع إلى مقالتيْن كان قد كتبهما صاحب هذه السطور مستفيداً من البحوث والدراسات البيولوجية الأمريكية ولا سيما الدراسات والبحوث التي قام بها عالمان مهمان في هذا الحقل وهما إيريك لينبرغ ونعوم تشومسكي . وعنوان المقالة الأولى هو (علم اللسان البيولوجي) مجلة المعرفة السنة التاسعة عشرة العددان ٢٢٢ - ٢٢٣ آب وأيلول ١٩٨٠ ص ٤٧ - ٦٥ . أما عنوان المقالة الثانية فهو (رجعة أخرى إلى علم اللسانيات البيولوجية : سبر للتجربة الأمريكية) .

مجلة المعرفة السنة التاسعة عشرة العددان ٢٢٥ - ٢٢٦ . تشرين الثاني كانون الأول

١٩٨٠ ص ٤٧ - ٧٥

المعياري الموسع الذي وُضع عام ١٩٧٠ - ١٩٧٢^(١) .

وينبغي عليّ أن أذكر في هذا المجال بأنني لم أترجم هذا البحث ترجمة حرفية بل لقد ترجمته بتصرف وذلك لصعوبة كتابات تشومسكي من جهة ثم لصعوبة المصطلح اللغوي من جهة أخرى . من هنا كان العنوان : تقديمًا وشرحاً . بالإضافة إلى ذلك ، فقد لجأت إلى تقسيم البحث إلى عناوين رئيسية تسهّل على القارئ عملية القراءة . . وهكذا فقد قُسمت البحث إلى الموضوعات التالية :

١ - مدخل .

٢ - المنهج البيولوجي اللساني للعالم الأمريكي ايريك لينبرغ .

٣ - مقارنة بين الدراسات البيولوجية للغة وبين الدراسات الفيزيائية

للفلك .

٤ - مقارنة بين الدراسات اللسانية وبين الدراسات النفسية .

أ - الدراسات اللسانية البيولوجية وطبيعتها العلمية التجريبية .

ب - ما بين تشومسكي ومدرسة جنيف النفسية .

(١) من المفيد أن نذكر في هذا المجال بأن مترجم هذا البحث كان قد تقدّم برسالة

للدكتوراه تدور حول تعديل آخر نظرية وضعها نعوم تشومسكي عام ١٩٨١ وهي نظرية العامل والربط الإحالي Government and Binding Theory تعديلاً نحوياً ودلالياً معتمداً بذلك على نظريتين اثنتين ، الأولى هي النظرية العربية النحوية والدلالية التي كان وضعها النحاة والبالغيون العرب القدامى . والثانية هي النظرية النحوية والدلالية التي كان وضعها عالم اللسان الأمريكي ولتر كوك Walter Cook . والغاية من ذلك هي الخروج بنظرية نحوية ودلالية حديثة وواقعية لشرح الأنظمة والروابط اللسانية في الجمل العربية والاستفادة منها في النواحي النظرية .

(Toward A Modern and Realistic Sentential Theory of Basic Structures in Standard

Arabic) (1983). Georgetown University, Washington D. C.

جـ - ما بين تشومسكي والمدرسة النفسية الروسية

٥ - نتائج وإرهاصات منهجية .

وأخيراً . . أحب أن أشكر عالم اللسان الأمريكي نعوم تشومسكي الذي كان لفت انتباهي إلى مثل هذه الدراسات والبحوث القيمة وذلك من خلال حوار لغوي كنت قد أجرته معه^(١) ، ثم لسماحه لي بترجمة هذا البحث ، كما أحب أن أشكر الدكتور عبد القادر فاسي منبري أستاذ علم اللسانيات الحديث في جامعة محمد الخامس بالرباط لتفضله بقراءة هذا البحث واقتراحه عدة مصطلحات لغوية نافعة ومفيدة . .

مازن الوعر

١ - مدخل

إن عنوان هذا البحث - كما هو معروف - مأخوذ من الدراسة البيولوجية لعالم اللسان البيولوجي إيريك لينبرغ Eric Lenneberg تلك الدراسة التي ظهرت عام ١٩٦٧ والتي تعد اليوم واحدة من الدراسات الكلاسيكية في هذا الحقل .

لقد كرس لينبرغ حياته كلها لدراسة اللغة التي اعتبرها ، (فاعلية من الفاعليات البيولوجية الطبيعية للإنسان) وقد أراد أن يدرسها (دراسة تشريحية تشبه الدراسات التشريحية الأخرى للجسم البشري) .

إن الهدف من هذه الدراسة هو بحث المفهوم البيولوجي للطاقت اللغوية وإرجاعه إلى مكانه الطبيعي في الدراسات اللسانية وذلك من خلال شرح

(١) لمعرفة الحوار اللغوي الذي أجراه صاحب هذه السطور مع عالم اللسانيات

الأمريكي نعوم تشومسكي يمكن للقارئ الرجوع إلى مقالنا (حول بعض القضايا الجدلية لنظرية النحو التوليدي والتأصيل) المنشورة بالعربية والإنكليزية والفرنسية في مجلة اللسانيات

التابعة لمعهد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر المجلد رقم ٦ عام ١٩٨٤

الفرضيات المتعلقة بهذا المفهوم البيولوجي من جهة ثم توضيح هذه المفاهيم من جهة أخرى بحيث يمكننا أن نضعها تحت مجهر الفحص والتدقيق . فإذا كان ذلك كذلك فإنه يمكننا أن نعتبر الطاقة اللغوية عضواً فيزيائياً من أعضاء الجسم البشري ثم يمكننا في الوقت نفسه أن ندرس المبادئ الفيزيائية التي يقوم عليها النظام العامل في ذلك الجسم وعلاقتها بالمبادئ اللغوية المختصة بالفصائل الإنسانية وحدها .

والواقع أنني أشعر بشكل شخصي أن هذا المنهج البيولوجي اللغوي هو الطريق الصحيح الذي يمكن للدراسات اللسانية الحديثة للغة أن تسير عليه .

٢ - المنهج البيولوجي للعالم الأمريكي إيريك لينبرغ

أودّ بادیء ذي بدء أن أشير إلى بعض القضايا المتعلقة بالمنهج البيولوجي اللغوي الذي كان وضعه وطروره إيريك لينبرغ مركزاً النقاش على قضيتين مهمتين تدوران حول طسعة الأساليب التي يمكننا من خلالها سبر الظاهرة البيولوجية اللغوية .

لقد لاحظ لينبرغ أن « القواعد التي تشكل النحو الكلي بما فيه العملية الفهمية والعملية الكلامية . . إنها هي قواعد ذات صفات محددة جداً » فهذه القواعد هي التي تصوغ ما تصوغ من الجمل والتركيب اللغوية الأخرى من خلال نظام محدد ودقيق ، من هنا فإن التحليل المنطقي والشكلي للمادة اللغوية سيكون ناقصاً تماماً إذا لم يلتفت العالم اللساني إلى هذه القواعد العاملة في الذهن البشري ، بل إن نتائجه ستكون اعتباطية تعسفية غير صحيحة ومقبولة . وبعبارة دقيقة إن ما نعني (بالقواعد العاملة في الذهن البشري) ، هو الأجهزة أو الأنظمة الدينامية الداخلية ذات الصفات البنوية المحددة ، لقد لاحظ لينبرغ من خلال دراساته البيولوجية اللغوية أن السؤال الجوهری في أیه

دراسة بيولوجية لغوية ينبغي أن يكون كالتالي :

« ماهي طبيعة الادعاء القائل بفطرية السلوك اللغوي الوراثي وغريزته ؟ » .

الواقع علينا أن نفترض بشكل تجريبي ملاحظ وجود أنسجة بيولوجية ذات صفات معينة والتي بدورها تحدد الفاعلية الناتجة عن العضو الجسمي العامل عليها ، وهذا بالطبع وعلى حد تعبير لينبرغ ، سيعمق معرفتنا بطبيعة الأنسجة البيولوجية المخبأة والمستترة .

إن المشكلة المهمة هنا هي استطاعتنا تحديد الأفعال المدركة الناتجة عن تلك الأنسجة البيولوجية وذلك ضمن شروط بيئية محيطية . والحقيقة لقد أكد لينبرغ الجانب التجريبي الملاحظ لثل هذه الدراسات البيولوجية اللغوية . من هنا فإنه ليس هناك أي مجال في هذا الحقل لمفاهيم ترميزية دوغمائية غير مستندة على أدلة تجريبية صحيحة وتامة ، لقد أدرك لينبرغ أن مهمة علم البيولوجيا هي معرفة الكيفية التي يتم من خلالها صياغة الأشكال اللغوية المختلفة للبنية الفطرية الغريزية في الذهن البشري . وهذا بالطبع سيلقي عبثاً آخر على علم البيولوجيا ذلك العبء المتعلق بالوصف الدقيق لردود الفعل الإنسانية تجاه الظواهر والقوى المحيطة بالإنسان . إن دراسة هذه الردود الإنسانية لن تقود بالضرورة لإثبات البنية الفطرية الغريزية الوراثية . والواقع يعتبر اكتشاف البنية الوراثية وفعاليتها العاملة في الذهن البشري عملاً تجريبياً مخبرياً يمكن له أن يكون جزءاً لا يتجزأ من المعرفة العلمية الحديثة .

والحقيقة عندما قابلت إيريك لينبرغ منذ خمسة وعشرين عاماً فإنني قد شعرت تماماً أن كل هذه الاهتمامات البيولوجية الأساسية كانت تأخذ حيزاً كبيراً من تفكيره وعمله . إن ما كان يهدف إليه لينبرغ هو أن يرى الدراسة اللغوية أو

ما يسمى الآن بـ (علم اللسان) فرعاً من العلوم الطبيعية المعروفة في العصر الحديث . فقد كرس لينبرغ كل جهوده لوضع الفاعلية اللغوية في نسيجها البيولوجي الطبيعي ثم دراستها دراسة طبيعية علمية حديثة .

وهكذا فإذا أخذنا بوجهة النظر البيولوجية للغوية هذه ، فإنه ينبغي على دراسة الأنظمة النحوية أن تهتم بمعرفة وسبر النظام الداخلي المحدد للعملية النحوية . . ثم أن تهتم بمعرفة الخصائص البنوية الفكرية لذلك النظام .

والواقع أن ما كان دعاء علماء اللسان بنظرية (النحو المكلي) Universal Grammar يمكن أن يُعتبر نظرية ميكانيكية غريزية فطرية وراثية وأنه يمكن أن يعتبر نسيجاً بيولوجياً مخبأً في الدماغ البشري يمكن من خلاله أن تعمل الفاعلية اللغوية . والحقيقة ليس هناك أي مسوغ لعالم اللسان بالآ يعتقد بمثل هذه الفرضيات والمبادئ ، وذلك لأن هذه المبادئ النحوية الكلية الفاعلة والمنفصلة في الدماغ البشري إنما هي عمليات تجريدية مكتملة مبنية على أرضية وراثية تطورية تمكن الطفل من تفسير الأحداث والتجارب اللغوية ثم تمكنه أيضاً من صياغة نظام من القواعد المبنية على مثل هذه العمليات التجريدية المكتملة .

وبعبارة أخرى ، يمكننا أن نفترض أن هناك وضعاً لغوياً بدائياً وراثياً في جميع الفصائل الإنسانية ، هذا الوضع اللغوي البدائي يختلف بالطبع عن الوضع الباثولوجي اللغوي Pathology الذي يمكن أن يحدث عند الفصائل الإنسانية مسبباً لها بعض الأمراض اللغوية . إن الوضع البدائي في أدمغة الفصائل الإنسانية إنما هو عرضة للتطور والنضج البيولوجي الذي يتم تحت شروط تجريبية معينة بحيث يمكن لهذا الوضع البدائي الوراثي أن يصل إلى مرحلة ثابتة من النضج البيولوجي لا يمكن له بعدها أن يتطور مرة أخرى . وهكذا فإن الوضع الأخير للتطور والنضج البيولوجي سيمكن الدماغ من القيام بوظيفته اللغوية القائمة على التجربة بأنم وجه .

ما أريد أن أقوله هنا هو أن مفهوم (النحو الكلي) إنها هو خاصة من خصائص هذه الوظيفة البيولوجية للدماغ ولا سيما في مراحلها الأولية . وذلك لأن قواعد هذا النحو الكلي تنحون نحواً فيزيولوجياً وبيولوجياً طبعياً داخل الدماغ مستفيدة من المواد اللغوية المقدمة لهذا الدماغ (بغض النظر عن هوية هذه المواد التي يمكن أن تكون مختلفة) .

من هنا فإنه ينبغي على علم اللسان البشري أن يكون دراسة تجريدية للفاعلية والميكانيكية البيولوجية اللغوية المتطورة في الدماغ . فعلى سبيل المثال فإنه ينبغي على علم اللسان أن يعتبر أن دراسة المقدرة اللغوية البيولوجية في جميع مراحلها وأوضاعها الأولية والمتوسطة ثم الأخيرة مشابهة تماماً لدراسة الكميات الحسابية العاملة في الأدمغة الالكترونية في جميع مراحلها وأوضاعها .

وبعبارة دقيقة ، إن دراسة المقدرة البيولوجية اللغوية في الدماغ البشري ينبغي أن تكون مشابهة تماماً لدراسة المقدرة الحسابية العاملة في الأدمغة الالكترونية والتي يمكن لها أن ترسم لنا الأبعاد التلثية للرؤية البشرية على سبيل المثال .

والحقيقة يمكن أن تثبت الشواهد التي تدعم هذه الفرضيات التجريبية السالفة من عدة مصادر متنوعة ، نأمل في نهاية المطاف أن نجد فيها الشاهد القوي المتعلق بالفاعلية والميكانيكية الفيزيائية التي تكشف لنا المقدرة البيولوجية المبرجة في الدماغ . ويمكن لنا في هذا المجال أن نتوقع بأن النتائج المنشقة عن دراسة التجريدية للمقدرة البيولوجية اللغوية المبرجة إنها ستعمق معارفنا حول طبيعة هذه المقدرة .

والواقع أن السؤال عن القدرة اللغوية معقد تعقيد القدرة اللغوية

نفسها . وهذا يأتي بالطبع من حقيقة أن القدرة اللغوية هي نظام واحد من عدة أنظمة فكرية متداخلة ومتشابكة في الدماغ البشري هذه الأنظمة المتشابكة تنتج ما يسمى بـ (اللغة) في صفتها التطبيقية الاستعمالية الواقعية .

فعندما نتكلم كلاماً ما أو نفرس ما نسمعه فإننا في هذه الحالة نضع في حسابنا مجموعة من الفرضيات المتعلقة بالعمليتين اللغويتين أي العملية الكلامية والعملية السمعية ، كموضوع المحادثة أو القوانين الطبيعية المحيطة بتلك العمليتين ، أو اعتبار أنظمة المؤسسات الإنسانية المجتمعة وما أشبه ذلك .

ولكن افترضنا بأن نظام القواعد النحوية هو (عضو ذهني بيولوجي) متشابك ومتداخل مع أعضاء ذهنية بيولوجية أخرى لها وظائف مختلفة إنما يضعنا أمام مشكلة تنبع من طبيعة العلوم الطبيعية نفسها .
هذه المشكلة هي مشكلة التجريدية والثالية المقترضة حول وجود هذا النظام للنحو الكلي في الدماغ البشري .

والواقع لكي يمكننا التغلب على هذه المشكلة فإن على الباحث أن يبذل جهداً واضحاً لتحديد نظام واحد من تلك الأنظمة المتشابكة كنظام الإنجاز الفعلي للغة^(١) (Performance) ذلك الإنجاز اللغوي الذي يمكننا ملاحظته من خلال العملية الكلامية . وهكذا يمكننا أن ننطلق من المعارف الحسية التجريبية لمعرفة الحقائق التجريدية المثالية أي أننا ننطلق في دراستنا من

(١) لا ندري ما الذي يمنع من ترجمة هذا المصطلح بالكلمة العربية الدقيقة :

(الأداء) وهي (تؤدي) معنى الإنجاز الفعلي ، كما أنها أقرب للأصل اللغوي وللمعنى العام للكلمة الإنكليزية Performance . ولا بأس بأن نغتنم هذه الفرصة لندعو إلى مزيد من التدقيق في ترجمة المصطلحات والكلمات المفتاحية إلى العربية . (رئيس التحرير) .

الإنجاز الفعلي للغة (Performance) للتوصل إلى المقدرة اللغوية (Competence) .
على أنه من خلال دراسة الإنجاز الفعلي للغة يجب أن نتذكر بأن الهدف البعيد
من البحث هو المقدرة اللغوية في الدماغ .

إن هذه الخطوات في البحث اللساني البيولوجي هي خطوات محفوفة
بالخطر وذلك لأن البحث عن النظام التجريدي المنتج للغة يمكن أن يقودنا إلى
أنظمة أخرى متشابكة ومتداخلة معه والتي بدورها تصوغ البنى البيولوجية
للدماغ .

٣ - مقارنة بين الدراسات البيولوجية للغة وبين الدراسات الفيزيائية للفلك

هناك قضية لسانية نفسية تدور مناقشتها في العصر الحديث في حقل علم
اللسان وعلم النفس على السواء . تلك القضية تُعرف بـ (الواقع
السيكولوجي) (Psychological Reality) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

والواقع أنني أعتبر (الواقع السيكولوجي) للعملية اللغوية جزءاً من
النظام البيولوجي اللغوي القادر على أن ينتج إما قواعد نحوية خاصة بلغة
معينة أو قواعد نحوية كلية تختص باللغات البشرية كلها . وهكذا فإن (الواقع
السيكولوجي) يمكن أن يُدرك من خلال الفرق بين القواعد النحوية الخاصة
والقواعد النحوية الكلية .

والحقيقة أن البحث في (الواقع السيكولوجي) يبدو مضملاً في بعض
الأحيان . وأستطيع أن أدلل على مخاوفي من المناقشات والبحوث المتعلقة
(بالواقع السيكولوجي) من خلال هذه المقارنة بين الدراسة الفيزيائية الفلكية
والدراسة البيولوجية اللغوية . لتأمل قليلاً المشكلة المتعلقة بتحديد طبيعة
العلاقات النووية الحرارية (Thermonuclear) في أعماق الشمس ، ولنفترض بأن

تقنيات البحث الفيزيائي المتوفرة لعلماء الفلك لا تسمح لهم بأن يدرسوا إلا الطاقة الضوئية المنبعثة من المجموعات الشمسية . وهكذا فإن علماء الفلك سيضعون نظرية فيزيائية يمكن لها أن تشرح العلاقات النووية الحرارية داخل الشمس تلك العلاقات التي لا يمكن رؤيتها على الإطلاق . إن الفرضية الفيزيائية هنا هي أن علماء الفلك ، من خلال دراساتهم للطاقة الضوئية سيحددون عناصرها الكثيفة والمتشابكة وذلك من خلال علاقات فيزيائية دقيقة قادرة على توليد الطاقة الضوئية الحرارية .

وهكذا فإننا نرى عالم الفلك يضع نظرية فيزيائية تشرح العلاقات النووية الحرارية للشمس دون أن يرى مثل هذه العلاقات . إن شواهد وملاحظاته الفيزيائية على ذلك إنما هي المركبات الضوئية الشمسية الأكثر بعداً من الشمس نفسها .

لنفترض أننا نريد أن نقد وننقد هذه النظرية الفيزيائية الفلكية ، فإن الحجة التي سنقدمها تكمن بالملاحظة التالية : « الواقع أنه لا غبار على النظرية الفيزيائية الفلكية التي قدمها عالم الفلك ، تلك النظرية المدعومة بالشاهد التجريبي ، ولكن السؤال الذي يمكن لنا أن نطرحه على عالم الفيزياء الفلكي هو : كيف يمكن لك أن تعرف بأن البنية التركيبية لنظريتك الفيزيائية الفلكية هذه تملك واقعاً فيزيائياً ؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن لك أن تعرف بأن نظريتك صحيحة ؟ » .

فإذا كان على عالم الفيزياء الفلكي أن يجيب عن مثل هذه الأسئلة فإنه لن يقدم لنا شيئاً جديداً . . إنه قد قدم لنا الشاهد التجريبي الملاحظ والمدرس ثم النظرية الفيزيائية التي تفسر وتشرح هذا الشاهد التجريبي أي الطاقة الضوئية المنبعثة من المحيط الخارجي للشمس .

وهكذا فإن الفضول العلمي يجعلنا نبحث عن أساليب علمية أكثر دقة وضبطاً ومباشرة . فعلى سبيل المثال يمكن لنا أن نفكر بأنه من المفيد علمياً أن نضع مخبراً علمياً داخل الشمس نفسها وذلك لكي نرصد العلاقات النووية الحرارية وتوليدها للطاقة الضوئية المنبعثة من الشمس . ولكن بما أنه لا يمكننا أن نفعل ذلك فإن علينا أن نثبت هذه العلاقات النووية الحرارية من خلال التأثيرات الضوئية الخارجية غير المباشرة ، وهذا فإنه يمكننا أن نعرف بنية اللامرئي من خلال البنية المرئية .

وهذا يمكننا أن ندحض حجة عالم الفيزياء الفلكي على أسس فيزيائية مثبتين خطأ نظريته الفيزيائية التي لم تقدم دليلاً حاسماً وصحيحاً .

ولكنه في الوقت نفسه لا يمكن لنا أن تأتي بفرضية فيزيائية أكثر صحة ودقة لإثبات (الواقع الفيزيائي) للبنية التركيبية للعلاقات النووية الحرارية . أضف إلى ذلك أننا لا نستطيع أن نقدم بنية تركيبية أكثر دقة وثبوتية كما هو الأمر في العلوم الطبيعية ، ونظرياتها الدقيقة والثابتة . وهكذا نستنتج بأنه ليس هناك أسس واضحة وثابتة يمكن أن يقدمها عالم الفيزياء الفلكي لشرح (الواقع الفيزيائي) .

لنفترض مرة أخرى بأن هناك عالماً فيزيائياً فلكياً مجرباً وحاذقاً ومبدعاً يملك الأسلوب العلمي المباشر لدراسة العلاقات النووية الحرارية الموجودة داخل الشمس وبالتحديد دراسة الطاقة النيوترينية (Neutrino) ^(١) المتشكلة من خلال ردود الفعل الناتجة عن هذه العلاقات النووية الحرارية داخل الشمس . فإذا كان لهذا العالم الفيزيائي الفلكي الحاذق والمجرب أن يثبت لنا صحة النظرية القديمة الناقصة أو أنه بدل ذلك يمكن أن يضع نظرية فيزيائية أفضل منها فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل يعني أن هذا التحقيق العلمي

(١) النيوترين هو دقيقة أولية متعادلة ذات كتلة أصغر من كتلة الإلكترون .

المباشر للعمليات الجارية داخل الشمس يمكن أن يقدم لنا أجوبة حاسمة للأسئلة التي كنا عرضناها من قبل ؟ وبعبارة أدق هل نحن الآن في وضع أكثر علمية وثقة ودقة لفهم (الواقع الفيزيائي) للبنية التركيبية للعلاقات النووية الحرارية ؟

إن الجواب على ذلك في رأي هؤلاء ، وذلك لأنه ليس هناك الشاهد والدليل التجريبي الحاسم والمقنع ، ولكن يمكننا أن نقول في الوقت نفسه ومن خلال هذه الشواهد المباشرة بأننا أكثر ثقة من قبل بالعمليات النووية الحرارية الجارية داخل الشمس والتي هي حقيقية من الناحية الفيزيائية . . . بل أكثر من ذلك إننا الآن أكثر ثقة بالفرضيات والنظريات الجديدة والصحيحة الموضوعة لشرح هذه العمليات الفيزيائية .

ما أريد أن أركز عليه من خلال هذه المناقشات هو أن هناك إحساساً ضعيفاً تجاه خلافنا حول الافتراضات والنظريات التي وضعناها فيها إذا كانت واقعية من الناحية الفيزيائية .

والواقع أن هذه المغامرات والطروحات العلمية التي لا تتجاوز حدود الأسئلة إنها هي بنفسها علم تجريبي وليس رياضيات تجريدية ، وهكذا يبدو من الأفضل والأنجع أن نختار نظرية أو فرضية واحدة من عدة فرضيات مطروحة في المجال العلمي . هذه الفرضية ينبغي أن تأخذ بحسبانها الشاهد والدليل التجريبي الحاسم الذي يدل بشكل أو بآخر على وجود الواقع الفيزيائي في بنية فيزيائية من هذا العالم .

والحقيقة أن دراستنا للفاعلية البيولوجية للقادرة اللغوية وعملياتها داخل الدماغ البشري تشبه تماماً دراستنا لردود الفعل النووية الحرارية وعملياتها داخل الشمس . . تلك الردود الناتجة عن الطاقة الضوئية المنبعثة من المحيط الخارجي

للشمس . فعالم اللسان البيولوجي يمكن أن يلاحظ بأن جميع الكائنات البشرية تستطيع أن تتكلم وتتصرف في محيطات بيئية معينة من المجتمع الذي تعيش فيه . ولكن كيف تستطيع هذه الكائنات البشرية أن تتكلم وتتصرف ؟ فلنرى كيف يستطيع عالم اللسان البيولوجي الإجابة عن مثل هذا السؤال فإن مهمته هي معرفة هذه الشواهد والمواد المتكلمة الملاحظة ثم معرفة ردود الفعل الإنسانية تجاه الأحداث المحيطة بمثل هذه المواد المتكلمة . والواقع أن ما يهدف إليه عالم اللسان البيولوجي من خلال هذه الدراسة التجريبية للعملية الكلامية هو التوصل إلى الفاعليات والميكانيكيات العاملة في الدماغ البشري . وهذا بالطبع سيقود عالم اللسان البيولوجي لوضع نظريات وفرضيات معينة مبنية على هذه العملية الكلامية التجريبية المشاهدة ثم ردود الفعل السلوكية اللغوية تجاهها وذلك لشرح وسبر هذه الفاعليات والميكانيكيات المخبأة والمستترة في الدماغ .

وهكذا فلنرى كيف يثبت عالم اللسان البيولوجي بأن هناك (واقعاً سيكولوجياً) لتلك الفاعليات والميكانيكيات العاملة في الدماغ فإن عليه أن يعيد النظر بشكل أو بآخر بالشواهد والمواد والسلوكيات اللغوية التي كان بنى نظريته عليها . ثم إن عليه أن يعيد النظر بالمقترحات المتعلقة بهذه الشواهد والمواد والسلوكيات اللغوية .

والواقع أن منهجية عالم اللسان البيولوجي في هذا تشبه تماماً منهجية العالم الفيزيائي الفلكي الذي لا يمكن له أن يرضى للوهلة الأولى عن الشواهد والمواد الفيزيائية التي لاحظها من خلال انبعاث الطاقة الضوئية من محيط الشمس الخارجي ثم بنى بعد ذلك نظريته عليها .

وهكذا فإننا نرى بأن عالم اللسان البيولوجي سيستمر دائماً بوخز الضمير العلمي الذي يحثه على إيجاد الشواهد والمواد اللغوية الأكثر علمية ودقة وشمولية وضبطاً .

إن الفكرة الرئيسية والمهمة في البحث العلمي بما فيه البحث البيولوجي اللغوي هي أن نضع في أذهاننا أنه لا يمكن لنا إلا أن نتبنى نظرية أو فرضية معينة من عدة فرضيات أخرى ثم أن نحاول إثباتها ودحضها لبقية النظريات والفرضيات العلمية الأخرى وذلك على أساس تجريبي علمي ، ولكن هذا لا يعني أبداً صحة هذه النظرية أو الفرضية التي نتبناها . فعلى سبيل المثال فإنه في الوقت الذي نحاول أن نثبت وجود (الواقع السيكلوجي) للعمليات والميكانيكيات العاملة في الدماغ البشري فإنه يمكن لنا أن نحاول أن اندحض ونفند مثل هذا الوجود وحجتنا في ذلك هي أن الشواهد والأدلة المقدمة لشرح (الواقع السيكلوجي) وإثبات وجوده إنما هي ضعيفة ، بل إنها عرضة لتفسيرات وتأويلات مختلفة . أضف إلى ذلك أن الشواهد والمواد المقدمة لعالم اللسان البيولوجي لإثبات الفاعليات المخبأة في الدماغ البشري إنما هي أقل رضى وقوة من الشواهد والمواد المقدمة لعالم الفيزياء الفلكي وذلك لإثبات الفاعليات النيوتريئية المخبأة داخل الشمس .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ولكن المنهجية العلمية التي تجمع عالم اللسان البيولوجي وعالم الفيزياء الفلكي هي أن جوهر المشكلات التي يعالجها إنما هي واحدة .

وبعبارة أدق إن البحث عن (الواقع السيكلوجي) داخل الدماغ البشري إنما هو في جوهره مماثل للبحث عن (الواقع الفيزيائي) داخل الشمس ، والواقع إن البحوث اللسانية البيولوجية السالفة والمتعلقة بإثبات (الواقع السيكلوجي) كانت قد أخذت وجهة مختلفة عن البحوث اللسانية البيولوجية الحالية ، لقد ركزت تلك البحوث السالفة على الشواهد والمواد اللغوية المتعلقة فقط بـ (ردود الفعل الإنسانية وأزماتها) ثم بـ (العمليات العقلية الإدراكية وانعكاساتها العملية) وأخيراً بـ (العمليات الجارية بالذاكرة وانعكاساتها التجريبية) وهناك شواهد ومواد لغوية متعلقة بأشياء أخرى

لا داعي للبحث فيها كالشواهد والمواد اللغوية المتعلقة باستنتاج المتكلمين وأحاديثهم اللغوية وجعلها عينات للوصول إلى الفاعليات التي تثيرها وتركبها .

والحقيقة أن كل هذه الشواهد والمواد اللغوية المستخدمة للوصول إلى الفاعليات الذهنية لا تملك الجواب الحاسم المقنع الذي يدل على وجود (الواقع السيكلوجي) للفاعليات البيولوجية اللغوية . فإذا كان علينا أن نبحت بشكل تجريبي علمي أكثر دقة وضبطاً عن (الواقع السيكلوجي) فإن علينا أن نقدم شواهد أكثر رضى ودقة بحث يمكن لها أن تدحض الشواهد السالفة وتثبت خطئها .

من هنا فإنه ينبغي أن نضع في أذهاننا أن الفرق بين النظريات والفرضيات التي تبحث عن (الواقع السيكلوجي) إنها هو فرق قائم على طبيعة الشواهد الدقيقة التي يقدمها عالم اللسان البيولوجي ويمكن لنا أن نوضح هذه المسألة من خلال هذا المثال المحسوس والسيط . لنفترض أننا نريد دراسة الجمل الاستفهامية التصورية في الإنكليزية المتكلمة فإننا سنلاحظ أن بعض هذه الجمل مصاغ صياغة نحوية جيدة والبعض الآخر مصاغ صياغة ركيكة . . لنلاحظ الجملة (١) .

(1) VIOLINS are easy to play Sonatas on

إن هذه الجملة يمكن أن تكون جواباً للسؤال (٢)

(2) WHAT INSTRUMENTS are easy to play Sonatas on?

وفي الوقت نفسه فإن الجملة (١) لا يمكن أن تكون جواباً للسؤال (٣)

(3) WHAT KINDS OF MUSIC are Violins easy to play on?

فالجملة (٣) ليست مصاغة صياغة جيدة على الإطلاق ، إن الجملة الاستفهامية الصحيحة التي يمكن أن تكون سؤالاً للجملة (١) هي الجملة

(٤) وليس الجملة (٥) مثلاً :

(4) WHAT VIOLINS are easy to play Sonatas on?

(5) WHAT SONATAS are Violins easy to play on?

والواقع أن كشف هذه الفروق بين هذه الجمل الاستفهامية التصورية يمكن أن يوضح لنا المشكلة بشكل تام . فالجملة (٥) تشبه الجملة (٣) فهاتان الجملتان ليستا مصاغتين صياغة استفهامية مقبولة في الإنكليزية المتكلمة وذلك لأن الخلل التركيبي في الجملتين إنما يتمثل في أن العبارة الاسمية المستفهم عنها (Sonatas) لا يمكن أن تكون متولدة في آخر الجملة أو ضمن عبارة فعلية مسندة كما رأينا في الجملة (١) مثلاً . وعلى العكس من ذلك فإن الجملة (٦) والمربطة بالجملة (٧) إنما هي مصاغة صياغة جيدة .

(6) WHAT SONATAS did John want Bill to play on the violin

(7) John wanted Bill to play SONATAS on the Violin.

ARCHIVE

وهكذا فإنه لا مجال للشك بأن الجملة الاستفهامية (٦) تتوافق مع قواعد النحو الإنكليزي المتمثلة في أدمغتنا بشكل أو بآخر . . بخلاف القواعد المتمثلة في الجملة الاستفهامية (٥) تلك القواعد التي لا أساس لها في أدمغتنا أبداً ، والحقيقة لقد لاحظت البحوث اللسانية السابقة مثل هذه الحقائق ولكن بشكل غير كاف . إن ما تحتاجه هذه الحقائق هو الشرح العميق الذي يمكن له أن يكون دليلاً واضحاً على العمق الفكري للتمثيلات الذهنية والكميات اللسانية في الدماغ البشري .

لنفترض أنه يمكننا شرح وسبر هذه الحقائق بشكل متطور ومتقدم فإن مهمتنا عندئذ أن نعرف بأن التراكيب الاستفهامية التصورية Wh-clause هي

تراكيب مقيدة بالضابط النحوي^(١) المعبر عنه باللغة الإنكليزية
بـ Island-constraint حسب مفهوم عالم النحوجان روز John Ross . أي قيد
الجزيرة الميمية .

والواقع تعتبر العبارة الإنكليزية مقيدة بالضابط النحوي «Island» أي قيد
الجزيرة الميمية إذا كانت مستثناة من تطبيق القواعد التي تربط أجزاءها بوضع
خارج عن الضابط النحوي «Island» . وهكذا فإن التراكيب الاستفهامية
التصورية «Wh-clauses» المقيدة بالضابط النحوي «Island» تعني أن القاعدة
التحويلية المعبر عنها بالإنكليزية بـ «Wh-movement» والتي تصوغ الجمل

(١) إن الضوابط النحوية المعبر عنها بالإنكليزية بـ Constraints والتي كان قد

استخدمها عالم اللسانيات الأمريكي نعوم تشومسكي في نظريته الأخيرة Government and Binding Theory نظرية العامل والربط الإجمالي ، إنها تشبه تماماً الضوابط النحوية التي
وضعها نحائنا القدامى مفرقين بينها وبين القاعدة . من هنا فقد لجأت إلى ترجمة المصطلح
Constraint بالضابط (٢) بحسب الدكتور عبد القادر فاسي منبري أن يصطلح عليه
بـ (القيد) . لقد ميّز العالم النحوي الفذ ابن يعيش بين القاعدة النحوية وبين الضابط
النحوي فالعوامل النحوية مثلاً إنها هي قاعدة نحوية . هذه العوامل تحكم وتؤثر فيها بعدها
وهكذا فالأفعال مثلاً هي عوامل تحكم وتؤثر بالفاعل والمفعول به ، وإن حروف الجر هي
عوامل تحكم الاسم المجرور الذي يأتي بعدها . ولكن الضابط النحوي الذي يضبط هذه
القاعدة النحوية يمكن أن يكون كالتالي : قال ابن يعيش : لا يعمل في الاستفهام ما قبله
من العوامل اللفظية إلا حروف الجر وذلك لثلاث بمرج عن حكم الصدر ، وإنما عمل فيه
حروف الجر دون غيرها لتتجزأ مما دخلت عليه منزلة الجزء من الاسم .

لمزيد من الاطلاع على الفروق بين القاعدة وبين الضابط يمكن للقارئ الرجوع إلى
السيوطي في كتابه (الأشباه والنظائر في النحو) طبعة جيداً أباد الدكن ج ١ ص ٣ - ٦ -
١٢٥ - ٢٢٣ ثم الرجوع إلى الدكتور مصطفى جواد في كتابه (دراسات في فلسفة النحو

والصرف واللغة والرسم) مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٦٨ ص ٥٢

الاستفهامية والجمل الموصولة (صلة الموصول) في الإنكليزية وذلك بتحريك عبارات استفهامية مثل (What) (Who) (What Sonatas) من آخر الجمل إلى أولها ، أقول إن هذه القاعدة لا يمكن أن تُطبّق بشكل عام ومطلق على كل التراكيب الاستفهامية التصورية Wh-clauses . فعلى سبيل المثال لا نستطيع أن نصوغ جملاً استفهامية تستفهم عن العبارة الاسمية (the book) كتلك الواقعة تحت رقم (٩) وذلك من خلال تطبيق القاعدة التحويلية «Wh-movement» على الجمل الواقعة تحت رقم (٨) .

(8) a. We Wondered [to whom John gave the book]

Wh Island

b. We found out [who wrote the book]

Wh Island

c. We did [What you asked us to do about the book]

Wh Island

(9) a. What book did We wonder [to whom John gave t]

b. What book We find out [Who Wrote t]

c. What book did we do [what you asked us to do a bout t]

والواقع إن العبارة الاسمية (The book) المستفهم عنها والتي هي ضمن الضابط النحوي Wh-Island يمكن أن تُطبّق عليها القاعدة الاستفهامية التحويلية «Wh-movement» ولكن بشرط واحد هو أن نستبعد العبارات الاستفهامية (What) (Who) (Whom) التي هي في الجمل التي بين قوسين مربعين والواقعة تحت رقم (٨) . فإذا فعلنا ذلك فإننا سنحصل على جمل استفهامية تصورية صحيحة كالواقعة تحت رقم (١٠) .

10. a. What book did we say that John gave to Bill t.

b. What book did we find out that John Wrote t.

c. What book did we ask you to tell Bill to do something about t.

وهكذا نستنتج من خلال هذه الأمثلة أن عبارات الاستفهام داخل التراكيب الاستفهامية التصورية Wh-clauses والتي رأيناها في الجمل التي بين الأقواس المربعة الواقعة تحت رقم (٨) لا يمكن أن تقبل القاعدة الاستفهامية التحويلية Wh-movement في اللغة الإنكليزية .

والواقع يمكن القول بشكل عام بأن تراكيب الاستفهام التصوري Wh-clauses في اللغة الإنكليزية والتي هي عرضة للمضابط النحوي (قيد الجزيرة الميمية) Wh-island يمكن لها أن تقبل القاعدة الاستفهامية التحويلية

Wh-movement

والحقيقة إن أكثر المضوابط النحوية بما فيها المضابط النحوي Wh-island (قيد الجزيرة الميمية) إنما هي خصائص لسانية عميقة من خصائص القواعد النحوية المعبر عنها في الإنكليزية بـ Locality Principle أو مبدأ المحلية . لنعد إلى الجملة (١) ونحللها من جديد ، لنفترض أن العبارة الفعلية (To play Sonatas) (١) هي فضلة داخل التركيب الاستفهامي التصوري Wh-clause فإن الكمبة الذهنية ستثبت لنا بأن الجملة (١١) والتي تظهر على أنها صلة من خلال الأداة (to) إنما هي مشابهة لجملة الصلة (١٢) والتي تظهر دون الأداة (to)

(11). I found [NP a violin [S to play sonatas on]]

(12). I found [NP a violin [S that you can play sonatas on]]

وبعبارة أخرى ، لنفترض أنه يمكن الحصول على التركيب الاستفهامي التصوري Wh-clause ، فإن التركيب المتمثل في (١٣) سيكون في مرحلة الكمبة اللسانية التي تعمل عليها القاعدة التحويلية Wh-movement لتنتج في النهاية الجملة (٥) مثلاً .

(13). [S which for PRO to play sonatas on T]

وهكذا يتبين بأن قاعدة الاستفهام التصوري Wh-movement لا يمكن أن تُطبق على العبارة الاسمية (Sonatas) التي تشبه العبارة الاسمية (the book) والتي لا يمكن للمساعدة المذكورة أن تُطبق عليها كما شاهدنا في الجمل الواقعة تحت رقم (٨) . إن الضابط النحوي المفروض على مثل هذه العبارات إنها يتعلق بها كنا قد اصطللحنا عليه بـ Wh-Island أو قيد الجزيرة الميمة .

إن الهدف من كل هذه الأمثلة والمناقشات الدائرة حولها هو البرهان على إثبات وجود تمثيلات ذهنية معينة للتركيب الاستفهامية التصورية Wh-clauses في الدماغ .

والواقع يمكننا أن نبحت عن شاهد ودليل أكثر قوة وإقناعاً لإثبات مثل هذه التمثيلات الذهنية في الدماغ البشري ، فعلى سبيل المثال إن التركيب (١٤) إنها هو مرتبط تماماً بالتركيب (١) .

(14). This is an easy violin to play sonatas on.

ولكن الفرق هنا بين (١٤) وبين بعض التراكييب الأخرى هو أن العبارة الاستفهامية (Wh) يمكن لها أن تظهر في تراكييب مشابهة تماماً للتركيب المتمثل في (١٤) كالتركيب (١٥ - أ) .

(15). a. He is an easy person to whom to speak a baut your problems

b. He is an easy person to speak a baut your problems to.

إن هذه التراكييب الواقعة تحت رقم (١٥) إنها هي ماثلة للتراكييب الواقعة تحت رقم (١٦) :

(16). a. I met a person to whom to speak a baut my problems.

b. I met a person to speak a baut my problems to.

وإن هذه التراكييب الواقعة تحت رقم (١٦) إنها هي مشابهة أيضاً للتراكييب الواقعة تحت رقم (١٧) :

(17). a. I met a person to whom I spoke about my problems.

b. I met a person whom I spoke about my problems to.

إن العبارة الاستفهامية (Wh) في التركيب رقم (ب - ١٧) إنها هي محذوفة من التركيبين (ب - ١٦) و (ب - ١٥) وذلك لأسباب لا تعنينا في هذا البحث . على أن هذه العبارة الاستفهامية (Wh) إنها هي ظاهرة في التركيب (آ - ١٥) مثبتة الفرضية التي اقترحناها من قبل والقائلة بأن هذه العبارة الاستفهامية هي ظاهرة في التمثيل الذهني كما في التركيب (١) ولكنها محذوفة من التركيبين (ب - ١٦) و (ب - ١٥) .

والواقع إنه إذا دمجنا هذه الملاحظات والنتائج بنظرية عامة تأخذ بحسبانها النحو الإنكليزي والنحو الكلي فإننا سنقدم دعماً إضافياً للتمثيلات اللغوية المقترحة في الأمثلة السالفة الذكر .

لنفترض الآن بأن هذه الملاحظات والنتائج اللغوية صحيحة (مع افتراضنا بقابليتها للتبدل والتغير والتعديل) فعندئذ يمكن لنا أن نعزو الفاعلية البيولوجية اللغوية في الدماغ إلى تمثيلات ذهنية معينة ثم إلى كميات لسانية عاملة على مثل هذه التمثيلات الذهنية .

وبعبارة أكثر تحديداً إننا نعزو هذه الفاعلية البيولوجية اللغوية إلى التمثيل الذهني في التركيب (١٣) ذلك التركيب الذي هو جزء من التركيب الأساسي (٥) . بل أكثر من ذلك ، إنه يمكننا أن نعزو هذه الفاعلية البيولوجية اللغوية إلى الكمبتة الذهنية الحسابية التي تنتج هذا الاشتقاق اللغوي المتمثل في التركيب (٥) ذلك التركيب الذي اعتبرناه غير نحوي وذلك بسبب الكمبتة الذهنية الحسابية التي تنتهك قيد الجزيرة الميمية Wh-island . وذلك عند تطبيق القاعدة التحويلية Wh-movement على العبارة الاسمية (Sonatas) كما هو الحال في التركيب (١٣) .

وباختصار ، إذا كنا قد افترضنا بأن نظريتنا هذه هي صحيحة (مع افتراض قابليتها للتبديل والتغير والتعديل) فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو هل نكون قد خطونا بهذه المقترحات والتنظيرات خطوة متقدمة وشرعية ؟

لا أظن كذلك ، لا شك أن خلافاتنا ومجادلاتنا حول طبيعة الشواهد والمواد المقدمة لتحليل الظاهرة اللغوية البيولوجية ستعمق من فهمنا للمبادئ الأساسية المقترحة .

إن هذا الإجراء اللساني مشابه تماماً لإجراء عالم الفيزياء الفلكي ومقترحاته الهادفة إلى معرفة طبيعة العلاقات النووية الحرارية العاملة داخل الشمس رغم الفروق المنهجية بين عالم اللسان البيولوجي وبين عالم الفيزياء الفلكي . والواقع أن الفرق بين منهجية عالم الفيزياء الفلكي ومنهجية عالم اللسان البيولوجي ليس فرقاً في المبدأ وإنما هو فرق في التفصيلات وذلك لأن الفضول العلمي لعالم اللسان البيولوجي يدفعه دائماً لفحص الكائنات البشرية وبعض الكائنات الأخرى وذلك للحصول على معارف أوسع وأعمق حول الفاعليات الدماغية اللغوية من جهة ثم تقريب بحثه من البحوث الفيزيائية . فإذا ما حقق عالم اللسان البيولوجي مثل هذه الشروط الدقيقة في بحوثه فإن الفحوة العلمية بين العلوم اللسانية والعلوم الفيزيائية سرعان ما تضيق وتلاشى .

والحقيقة أن هناك عدة أسئلة يمكن لها أن تنهض بشكل شرعي مقبول حول الفرضيات التي أشرت إليها من قبل . وهكذا يمكن للعالم أن يسأل عن مدى طبيعة الشواهد والأدلة المقدمة لدعم الفرضية المطروحة ثم عن مدى صحة المبادئ القائمة على مثل هذه الشواهد والأدلة . أما فيما يتعلق بطبيعة الشواهد والأدلة فإنه يمكننا أن نخطو خطوة أخرى وذلك لفحص النتائج والمبادئ المستنبطة من التراكيب الجيدة الصياغة في الإنكليزية المتكلمة .

فعلى سبيل المثال يمكننا وضع امتحان تجريبي وذلك لفحص المعيار اللساني النحوي المصطلح عليه بـ (معيار المقبولية) acceptability . فإذا ما نجح مثل هذا الامتحان التجريبي فإنه يمكننا أن نستخدم نتائجه في تحديد دقة الأحكام التي أطلقناها على الصياغات الإنكليزية مدركين أن (الصياغة الجيدة) للتركيب اللغوي هي مفهوم نظري لا نستطيع من خلاله أن ندرك معايير لغوية فاعلية ضرورية وكافية .

والواقع ينبغي لامتحان معيار المقبولية أن يتطابق مع الشروط التجريبية المعنية . فهو يشبه في هذه الحالة أية نظرية علمية ينبغي عليها أن تتطابق مع بعض الشروط التجريبية المعنية .

لقد شك بعض علماء اللسان بفرضية امتحان معيار نحوي ما مدعين أن الشروط المستخدمة في فحص امتحان ما هي نفسها يمكن أن تكون عرضة للشك والفحص والتعديل . والحقيقة أن مثل هذا الشك لا يملك الأساس العلمي الصحيح وذلك لأنه يدور في حلقة مفرغة : إن هذه الحالة تشبه تماماً إعادة اكتشاف الحقيقة القائلة بأن علم اللسان ليس فرعاً من الرياضيات ولكنه فرع من العلوم الطبيعية التجريبية . ذلك الاكتشاف الذي يُعدّ بديهياً . والحقيقة أننا إذا منحنا هذه الصفة التجريبية لعلم اللسان فإنه يبقى هناك بعض الجمل الملاحظة التي تؤلف حجر الأساس للمعرفة البشرية ولكنها لا تخضع لمعيار التجريبية ، على أية حال يبقى صحيحاً بأنه ينبغي على العالم أن يلجأ إلى النظرية وذلك لتحديد كمال ودقة الملاحظات التي كوّنها حول ظاهرة معينة .

وبعبارة أخرى إن على أي عالم أن يضع في ذهنه أنه ليس هناك مجال للجزم الديكارتي الحاسم والآخر .

لقد ظن كثير من العلماء بأن مشكلة الدقة والتأكد التجريبي العلمي يمكن التغلب عليها من خلال اهتمامنا وتركيزنا الشديد على المواد والعينات المدروسة Corpus . بل لقد ذهب بعضهم ليقول بأن التأكد التجريبي العلمي كان صفة من صفات البحث في القواعد التقليدية كما نجد ذلك عند الباحث في Ney . والواقع إن هذا الادعاء ليس صحيحاً وذلك لأن المواد والعينات اللغوية يمكن أن تحوي أمثلة من الجمل الركيزة غير النحوية والتي يمكن لعالم اللسان أن يدركها محاولاً تصحيحها . بل أكثر من ذلك يمكننا القول بأن أي دراسة جدية للاستعمالات اللغوية التي تستنبط شيئاً تجريبياً مجدياً كالأعمال الكلاسيكية لـ جيسبرسين Jespersen ينبغي أن تسترعي انتباهنا .

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أنه ينبغي علينا أن نحصر التحليل النحوي بعينات ومواد لغوية معينة . إن عملنا هذا ينبغي أن يشبه عملاً التحليل الفيزيائي للأحداث المحيطة بنا خلال حياتنا العادية التي تبدو كأنها شريط سينمائي عابر .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وهكذا فإذا أردنا منهجاً أكثر عملاً وإنتاجية من الناحية التطبيقية والنظرية فإن علينا أن نأخذ بالاعتبار السؤال الذي طرحناه من قبل ذلك السؤال الذي بحثنا على شرح المبادئ العامة المستعملة في التحليل اللغوي ثم وضع هذه المبادئ تحت امتحان تجريبي مستقل .

إن الخطوة الأولى في المنهج التطبيقي والنظري الذي نهدف إليه هو محاولتنا شرح قيد الجزيرة الميمية Wernicke المطبق على التركيب الاستفهامي التصوري وذلك من خلال مبادئ نحوية أكثر عمقاً وتحليلية وشمولية وذلك لوضع هذا الشرح والتعليل اللغوي في صيغة تجريبية أكثر إثارة وتحدياً للبحث العلمي وهذا لا يتم بالفعل إلا إذا بحثنا عن شواهد أخرى تدعم التحليل اللغوي للشاهد الذي كنا قد اقترحناه من قبل والمتمثل في الجملة (١) ثم

التمثيل الباطني والكمبته اللسانية لمثل هذا الشاهد والواقعة تحت رقم (١٣) .
لنفترض أن هذا المنهج التطبيقي والنظري الذي اقترناه قد أعطى ثماراً جيدة
فإن علينا في هذه الحالة أن نقدم شاهداً جوهرياً مستقلاً يمكن أن يسهم في بناء
النظرية التي نريد صياغتها ، تلك النظرية المبنية على الحقائق التي استنبطت
ثم على حقائق أخرى مشابهة . فإذا ما فعلنا كل هذا فإن السؤال الذي يطرح
نفسه مرة أخرى هو : هل يمكننا أن نعتبر أننا قد قدمنا الشاهد القوي والحازم
للدلالة على وجود (الواقع السيكلوجي) ، للتمثيلات الذهنية للشواهد التي
كنا قد اقترحناها ؟

الواقع أن العديد من علماء اللسان ومن خلال دراساتهم اللسانية السالفة
يودون أن يرفضوا النتائج التي توصلنا إليها وهكذا فإن إجاباتهم ستكون
بالرفض . إن حججهم على ذلك هي أن المنهج التطبيقي والنظري التحليلي
الذي أخذنا به لإثبات (الواقع السيكلوجي) ينبغي أن يكون أعمق وأشمل
بحث يراعي إزالة الحواجز والعوائق التي تفصل بين التراكيب المفترضة
وتراكيب أخرى يمكن لها أن تسهم بشكل أو آخر بكشف (الواقع
السيكلوجي) ومعرفته معرفة جيدة .

لنفترض الآن بأن أحد علماء اللسان يود أن يضع تجربة معينة تتعلق
(بالإدراك اللغوي) أو (استدعاء الذاكرة) وذلك لامتحان وجود التركيب
الاستفهامي التصوري Wh-clause في التمثيل الباطني في الدماغ . وقدترض
أيضاً بأن عالماً لسانياً آخر يود أن يكتشف البنية التركيبية للفاعلية الكهربائية في
الدماغ البشري تلك البنية المرتبطة بوجود التراكيب اللغوية Wh-clauses
بمختلف أنواعها كالتركيب الاستفهامي التصوري Wh-question ، ثم كتركيب
صلة الموصول Relative clause . ولنفترض بأنه يمكن لعالم اللسان أن يلاحظ
البنية التركيبية للفاعلية الكهربائية من خلال تكلم الشخص وفهمه لجملة

فإذا ما اكتشفنا كل هذا بالفعل . . فهل نكون قد أثبتنا وجود (الواقع السيكلوجي) للتمثيلات الذهنية للجميل اللغوية المقترحة ؟ الواقع إنني لا أرى أي إسهام إضافي للشاهد الجديد يمكن أن يثبت وجود (الواقع السيكلوجي) في حين أن الشاهد القديم يثبت فقط شيئاً مفترضاً دون التأكد من وجوده .

إنه يمكن أن نقول بأن هذا الشاهد الجديد يمكن أن يكون أكثر جدية وإقناعاً من الشاهد القديم ، وفي الوقت نفسه يمكن له ألا يكون كذلك . إن حكمنا على جدية الشاهد العلمي يعتمد على عدة شروط منها :

- (١) صفة الشاهد وطبيعته العلمية .
- (٢) شرعية الشاهد وكونيته .
- (٣) درجة القوة التي يمكن من خلالها لهذا الشاهد أن يثبت حقيقته ثم تعامله مع مبادئ أخرى تعاملاً إيجابياً .
- (٤) وضوح الشاهد .
- (٥) شمولية الشاهد .

والواقع إنه من الإنصاف أن نقول بأن المبادئ المستنبطة من الشواهد والمواد اللغوية المشتقة من استنطاق المتكلم informant قد أثبت لأن تكون أكثر عمقاً وتحليلية وعطاءً من تلك المبادئ المستنبطة من الشواهد والمواد اللغوية المشتقة من التجارب الأخرى . فإذا قبلنا (كما أعتقد أنا شخصياً) بالحجة التي قدمها لينبرغ من أن القواعد النحوية هي قواعد متداخلة ومتشابكة في فعاليات وميكانيكيات بيولوجية أخرى فعندئذ فإن الشواهد المتعلقة بالإنتاج اللغوي (عملية كلامية) والإدراك اللغوي (عملية فهمية) يمكن لها أن تؤثر في

دراستنا هذه القواعد النحوية . وبعبارة أخرى إن هذه الشواهد ستؤثر في دراسة ما اصطلحنا عليه بـ (المقدرة اللغوية) Grammatical Competence أو (المعرفة اللغوية) Knowledge of Language . ولكن مثل هذه الشواهد ليس لها ميزة ممتازة وتأثير فعال في معرفة (الواقع السيكلوجي) ذلك أنه لا يمكننا أن نصنف الشواهد اللغوية ضمن صنفين اثنين : شواهد تؤثر في معرفة (الواقع السيكلوجي) وشواهد تصوغ نظريات متعلقة بالكمبتات والتمثيلات الباطنية الذهنية .

والواقع هناك بعض الشواهد اللغوية التي يمكن لها أن تؤثر في المناهج المتعلقة بـ (المقدرة النحوية) بشكل غير مباشر وفي الوقت نفسه هناك بعض الشواهد الأخرى التي يمكن لها أن تؤثر في المناهج نفسها المتعلقة بـ (المقدرة النحوية) بشكل مباشر تماماً بل بشكل أكثر تجريدية من الاستعمال أو الإنجاز اللغوي نفسه .

وهكذا يتبين أنه يمكن لعالم اللسان أن يستعمل الشواهد والمواد اللغوية في طرق مختلفة وذلك لأن هذه الشواهد والمواد اللغوية لا تستطيع أن تشرح نفسها بنفسها ، فهي لا تقدم نفسها كجسم جاهز معلل ومشروح بحيث يمكن للنظرية أن تتبناه وتستشهد به للبرهان على وجود (الواقع السيكلوجي) .

٤ - مقارنة بين الدراسات البيولوجية وبين الدراسات النفسية العقلية :

يستطيع عالم اللسان أن يرسم خطأ واضحاً يفصل من خلاله علم اللسان عن علم النفس معتمداً على الأدلة والأهداف المتعلقة بكل حقل من هذين الحقلين . وهكذا يمكن لعالم اللسان مثلاً أن يعتبر علم اللسان علماً يعتمد في تحليلاته وأدلته على الأحكام المستنبطة من المتكلم أو المستنطق الذي

يقدم المعلومات اللغوية للدراسة العلمية Informant . ثم إنه يعتمد على المواد اللغوية المستنبطة أو على الاستعمالات اللغوية الناتجة عن مواد لغوية فعلية وذلك من أجل تحديد طبيعة النحو المتعلق بلغة معينة ثم طبيعة النحو الكلي المتعلق باللغات البشرية كلها . والحقيقة أن الهدف الرئيسي لعلم اللسان هو سبر الفاعلية المتعلقة بـ (المقدرة اللغوية) تلك المقدرة التي هي عبارة عن نظام القواعد النحوية الموجودة في الدماغ الإنساني والتي من خلالها يمكن للمرء أن يعرف لغته شكلاً ومضموناً وبوجهيها الكلامي والفهمي . وبعبارة أخرى إن نظام القواعد النحوية هذا هو الذي يولد الجمل اللغوية الصحيحة ثم بالتالي تفسيرها تفسيراً دلالياً صحيحاً ومفهوماً .

فإذا كان لعلم اللسان أن يثبت مثل هذا النظام النحوي فإن الهدف الثاني الذي ينبغي لعلم اللسان تحقيقه هو سبر (النحو الكلي) ومعرفة مبادئه وقواعده .

أما فيما يتعلق بعلم النفس فإن الهدف الرئيسي له هو دراسة (الإنجاز اللغوي) Performance وليس (المقدرة اللغوية) Competence . إن المهمة الرئيسية لعلم النفس هي دراسة الاستعمالات الحقيقية للغة ثم التفسيرات المتعلقة بمثل هذه الاستعمالات ، وبعبارة أخرى ينبغي على علم النفس أن يهتم بالأشكال اللغوية المؤطرة والمنظرة للمقدرات اللغوية تلك الأشكال التي تمرّ في مراحل مختلفة من النمو والنضج عند اكتساب الطفل للغة معينة .

والواقع يبدو لي أن هذا الفصل الحاد بين علم اللسان وعلم النفس غير معقول بل لا جدوى من التأكيد عليه . لا شك أن الفصل الحاد بين المعارف البشرية إنما له مسوغاته في مجالات أخرى من الحياة كما هو الحال في إدارة الجامعات وتنظيماتها أو في إدارة المنظمات المهنية . ولكن ليس هناك أي مسوغ لهذا الفصل الحاد في حقل التكوين الحضاري والبحث التقني ذلك لأنه ليس

هناك فصل حاد بين حدود المعارف البشرية التي تكمل بعضها بعضاً . فعالم اللسان الذي يريد معرفة البنية التركيبية للمقدرة اللغوية سيكون في وضع تجريبي أسلم وأقوى إذا استفاد من النتائج العامة للمعرفة البشرية ولا سيما المعارف المتعلقة بالبحوث اللغوية للإنجاز اللغوي . وفي الوقت نفسه فإن عالم النفس الذي يريد معرفة البنية التركيبية للإنجاز اللغوي سيكون في وضع تجريبي أكثر علمية إذا استفاد من النتائج العامة للمعرفة البشرية المتعلقة في البحث اللغوي للمقدرة اللغوية .

ويمكنني أن أذهب أكثر من ذلك لأقول بأن النظرية النحوية للغة معينة ثم النظرية النحوية الكلية للغات البشرية كلها إنما يمكن أن نعتبرها وجهاً من وجوه علم النفس المتعلق بالنظام الوراثي البيولوجي للقواعد الكلية وتحولاتها في اللغات البشرية .

والحقيقة أنه مهما كانت الأهداف الراقية إلى دراسة البنية اللغوية والنحوية فإنه لا شك بأن نتائجها ستسهم الكثير في حقل علم النفس التجريبي .

والواقع لقد حاول لينبرج التأكيد على هذه النقطة في جميع أعماله وبحوثه اللغوية البيولوجية . ويدولي أن اتجاه لينبرج هو اتجاه سليم وصحيح .

لقد اختلف العلماء بهذا الصدد فلكل آراءه وحججه المختلفة عن الآراء والحجج التي كنت اقترحها . يرى كينتس Kintsch ومعاونوه مثلاً في الفصل الأول من كتابهم حول (علم النفس المعرفي) Cognitive Psychology بأن (الفصل الحاد) بين المقدرة اللغوية Competence والإنجاز اللغوي Performance سيمكن عالم اللسان من التعامل مع فرضيات تجريدية غير خاضعة للواقع السيكلوجي . بل أكثر من ذلك ، إن هذا (الفصل الحاد) سيقدم

حجة طريفة لعالم النفس بأن النظريات اللسانية لا تتعلق أبداً بالإنجاز والاستعمال اللغوي . إن اهتمام عالم اللسان ينبغي أن ينصب فقط على معرفة المقدرة اللغوية التي ليست من اهتمام عالم النفس . والواقع إن هذه الملاحظات العامة تعكس عشوائية وفوضى في المنهج الذي تبناه كينتش ومعاونوه . لقد هدف كينتش إلى نقد المنهج اللساني الذي اقترحه من قبل ذلك المنهج الذي يعتقد بأن (المعرفة اللغوية) أو (المقدرة اللغوية) للإنسان يمكن أن تمثل على أنها نظام من قواعد النحوم إن هذا المنهج يعتقد أيضاً بأن الدراسات والبحوث المتعلقة بالإنجاز اللغوي يمكن أن تتحد مع الدراسات والبحوث المتعلقة بالمقدرة اللغوية أو المعرفة اللغوية .

وهكذا فإن مهمة عالم اللسان حسب هذا المنهج الذي اقترحه هي تحديد طبيعة النظام الذي تقوم عليه (المقدرة اللغوية) بشكل تجريبي تلك المقدرة التي تمكن المتكلم أن يعرف ما يعرفه عن لغته . ثم إن مهمة عالم اللسان حسب ذلك المنهج المذكور هي أن يطور الفرضيات التي تبين كيفية استعمال هذه المعرفة اللغوية . لقد أكد كينتش بأن دراسة الأنظمة التجريدية للمقدرة اللغوية إنما هي (مسوغة) ولا يمكن للواقع السيكلوجي أن يحد منها . ولكننا لا نستطيع التوصل إلى نظرة عميقة ثابتة تستطيع أن تثبت الحقيقة التي نهدف إليها بغض النظر عن الوسيلة العلمية التطبيقية التي نستخدمها .

والواقع إنه يمكن (للواقع السيكلوجي) أن يحد من دراسة الأنظمة التجريدية للمقدرة اللغوية رغم أن هذه الدراسة لتلك الأنظمة تهتم ببعض الأوجه المحددة لذلك الواقع السيكلوجي . والحقيقة أن منهج كينتش النفسي غير مهتم بالنظريات التعليلية مهما كانت مقنعة وقوية تلك النظريات التي تهتم بهذه الأوجه المحددة من المعرفة اللغوية وأسس اكتسابها سواء أكانت هذه المعرفة تتعلق بقواعد خاصة للغة معينة أم بقواعد كلية للغات البشرية كلها .

وبعبارة أخرى ينبغي - على عالم النفس - على حد تعبير كينتس - أن يستبعد الأسئلة الجوهرية المتعلقة بعلم النفس المعرفي عن مجال اهتماماته أوحتى عن مجال اهتمام أي إنسان . إن ما يدعو للعجب هو ادعاء مثل هذا المنهج بأن كل هذه المقترحات إنما هي مبنية على أسس تجريبية دقيقة .

والواقع أن منهج كينتس ومعاونيه هو منهج من مناهج العلوم الطبيعية ذات اتجاه دوغمائي تزمي . وذلك لأن عالم النفس الذي يعتمد مثل هذا المنهج في بحوثه لن يعاني فقط من نقص الاهتمامات الرئيسية بالنفس البشرية فحسب بل إنه لن يأخذ أيضاً بالحسبان الأنظمة التجريدية للمقدرة والمعرفة اللغوية . فإذا كان لهذه الأنظمة التجريدية للمقدرة والمعرفة اللغوية والتي كان رفضها كينتس من منهجه أن تكشف الفاعلية البيولوجية للمقدرة اللغوية المخبأة من خلال منهج تجريبي كالذي دعا إليه لينبرغ فإن النتائج التي يمكن الحصول عليها من خلال تلك الأنظمة ستدحض وتفنيد المنهج الذي أخذ به كينتس وتثبت بالتالي أن (الفصل الحاد) بين المقدرة اللغوية والإنجاز اللغوي إنما هو إجحاف حاد في البحث العلمي التجريبي .

وتراني أعيد القول بأن مثل هذه المقترحات التي كان كينتس ومعاونوه قد تقدموا بها إنما هي مقترحات ضحلة بل إنه من الصعب تماماً أن نتصورها في حقل العلوم الطبيعية التجريبية .

إنه يمكننا أن نضع فرضية ذهنية معينة تستطيع أن تفند ما كان ذهب إليه كينتس . يمكن للمرء مثلاً أن يقترح بأنه إذا طورنا المناهج التجريبية الإجرائية ، فإنه من الممكن عندها أن نشرح الحقائق اللغوية المعنية دون الرجوع إلى دراسات تجريدية مثالية لأنظمة القواعد النحوية المتمثلة في المقدرة أو المعرفة اللغوية للمتكلم والمستمع كما اقترح كينتس . ويمكن للمرء بالتالي إثبات صحة مثل هذه الفرضية . ولكن المشكلة هي أننا يجب ألا نرفض هذه

الفرضية بشكل عشوائي مسبق كما فعل كيتش . فإذا فعلنا ذلك فإننا ستجنب معقولية الجدل العلمي ، وبالتالي فإننا سنقترب من الأسلوب الدوغمائي والتزمي العلمي الذي أخذ به كيتش .

والواقع أن وضع فرضية علمية معينة ثم إثبات خطئها بشكل مسبق ودون وضعها على محك النقد والتجريب إنما هو أكبر خطر دوغمائي تزمي يمكن أن يهدد ويعرقل البحوث والدراسات العلمية والإنسانية على مدى السنوات المقبلة .

فعلى الرغم من أن كيتش كان قد اعتبر بأن (الفصل الحاد) بين المقدرة اللغوية وبين الإنجاز اللغوي فصلاً متعلقاً بمفهوم تينك الفاعليتين وتعريفهما ، فإن هذا الفصل بين فاعلية المقدرة اللغوية وفاعلية الإنجاز اللغوي يبقى (حاداً) في منهجه وذلك لأن الاهتمام الرئيسي في منهج كيتش هو « دراسة الخصائص المعينة للمستويات المتمثلة في الذاكرة دراسة نظرية وتطبيقية » . وبعبارة أدق ، إن منهج كيتش مهتم بدراسة الجمل اللغوية وتمثيلاتها من الناحية الدلالية والفهمية . لقد اعتبر كيتش هذه الجمل اللغوية وتمثيلاتها عبارة عن تمثيلات خبرية إعلامية . والحقيقة إن هذه الدراسة التي أخذ بها كيتش إنما تمثل وجهاً واحداً من وجوه الفاعلية البيولوجية للمقدرة اللغوية . فقد افترض كيتش أن هناك نظاماً للقواعد النحوية يستطيع أن يولد هذه التمثيلات الباطنية للجمل الخبرية الإعلامية وذلك تحت شروط معينة . وقد حاول كيتش أن يعرف شيئاً ما عن بنية الإنجاز اللغوي وكيفية عمله وإنتاجه لهذه المستويات التمثيلية للجملية وذلك من أجل فهم مثل هذه المستويات التمثيلية للجمل اللغوية .

فإذا كان كيتش يعتقد بأن منهجه هذا « لا يعرف الفصل بين المقدرة اللغوية والإنجاز اللغوي » فإنه في الواقع يميل إلى هذا الفصل في طريقة

طريقة توجي بالفعل وكأنه يفرض مثل هذا الفصل . وهذا ليس مستغرباً إذا عرفنا بأن المفاهيم التي عرضها في منهجه ليست مفاهيم متلاحمة ومتناسكة .

أ - الدراسات اللسانية البيولوجية وطبيعتها العلمية التجريبية :

الحقيقة أنه إلى هذا الحد أكون قد شرحت القضية الأولى التي توصل إليها إيسريك لينبرغ من خلال دراساته البيولوجية للغة . أما الآن أريد أن أناقش القضية الثانية التي توصل إليها لينبرغ .

إن القضية الثانية المتعلقة بالبحث البيولوجي اللغوي تتلخص بالحقيقة القائلة بأن : « اكتشاف الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية للقدرة اللغوية ووصفها وصفاً دقيقاً ، إنما هو عمل بيولوجي تجريبي متمم للمعرفة العلمية » .

هذه الدراسة العلمية التجريبية للفاعليات اللغوية ستقودنا بالتالي لسبر (النحو الكلي) ومبادئه Universal Grammar ثم لسبر المبادئ والأنظمة البيولوجية المتمثلة في الاستعمالات اللغوية وبالتحديد في المقدرة اللغوية الذرائعية^(١) Pragmatic Competence والمتمثلة أيضاً في التراكيب الإدراكية التي هي عبارة عن وجه لغوي من وجوه الاستعمالات الفعلية للغة .

والواقع لقد لاحظ لينبرغ أنه من الضروري أن نؤكد على الطبيعة التجريبية للبحث العلمي الذي يحاول معرفة الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الموجودة في الدماغ البشري . إن هذا التأكيد الذي يصير عليه لينبرغ نابع من الدوغمائية التي سيطرت على البحوث العلمية المتعلقة بالبحث البيولوجي اللغوي تلك الدوغمائية التي حرّمت على الباحثين تناول الفاعليات

(١) إن مصطلح الذرائعية Prmatism يدل على الفلسفة الذرائعية الأمريكية التي

تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية وصدقها .

البيولوجية ومعرفة كنهها . والواقع ما يزال هناك عدة علماء حتى اليوم يرفضون الاقتراب من البحوث المتعلقة بالفاعليات البيولوجية اللغوية في الدماغ وحجتهم في ذلك أن الفرضية القائلة بوجود الفاعليات البيولوجية اللغوية الغريزية الفطرية بالدماغ إنما هي حيلة ذكية لصياغة بحوث علمية أكثر جدية وصدقاً . ولكن لينبرغ كان قد أشار إلى أن هذه الحجة ليست مبنية على أساس علمي منهجي بل إنها حجة تُحَدُّ من انطلاقة الخيال ومغامراته العلمية .

والواقع أن هذا الارتباب والخوف من المغامرة العلمية التي تهدف لسبر الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الموجودة في الدماغ ما تزال تتلامح في الأفق حتى اليوم . ويبدولي - مؤيداً بذلك لينبرغ - أن مثل هذه المخاوف ليس لها أي مسوغ علمي . . . بل أستطيع أن أقول أنها « غامضة على أقل تقدير » .

والحقيقة أن هناك آراءً وحججاً عديدة يمكن أن يتعرض لها المرء تلتقي كلها عند هدف واحد وهو نقد المنهج العلمي البيولوجي اللغوي الذي اقترحه في هذا البحث .

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أنه ما يزال هناك نقد واعتراض وخوف حول المنهج البيولوجي العلمي الجريء الذي أخذ به لينبرغ ، ذلك المنهج الذي أبدته تأييداً لا يدع مجالاً للشك .

لقد عبر عن هذه المخاوف والاعتراضات عدد من الفلاسفة المهتمين بدراسة طبيعة العلاقات الفلسفية للغات البشرية ثم عدد آخر من علماء اللسان (انظر على السبيل المثال بيرز Peizer وأولستد Olmsted) وقد كنت أثبت خطئ هؤلاء الفلاسفة وعلماء اللسان في مواضع أخرى من كتاباتي . . لذلك لن أنطرق إلى تقديمهم مرة أخرى .

ب - ما بين تشومسكي ومدرسة جنيف النفسية :

أحب أن أشير إلى أن الاعتراض والنقد الأساسي الذي وجه إلى المنهج البيولوجي اللغوي الوراثي القائل بوجود فاعليات وآليات غريزية في الدماغ منذ ولادة الطفل إنما كان قدمه علماء النفس الإدراكيين وعلماء النفس السلوكيين أيضاً .

لنتأمل النقد الذي كان عرضه عالم النفس الإدراكي السويسري جان بياجيه Piaget ومعاونوه . إن حجة بياجيه هي أنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نشرح الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الموجودة في الدماغ البشري شرحاً بيولوجياً أو كما يقال باللغة الإنكليزية (Biologically inexplicable) . فلنرى كيف نعرف هذه الفاعليات اللغوية التي لا يمكن شرحها بيولوجياً ، فإن بياجيه يقترح شرحها شرحاً قائماً على أساس من البنية التركيبية التطورية للذكاء الحسي - الحركي أو على أساس ما يمكن أن يقال له في اللغة الإنكليزية بـ Sensorimotor Intelligence . وبعبارة أخرى فإن بياجيه لا يخالف لينبرغ في مبدأ البحث العلمي من حيث أن هناك فاعلية فطرية غريزية لغوية في الدماغ البشري ولكن يخالفه بالأسلوب والمنهج المستخدم في دراستها . وهكذا ينبغي على المنهج حسب رأي بياجيه ألا يكون منهجاً بيولوجياً كما اقترح إيريك لينبرغ ، بل يجب أن يكون منهجاً متعلقاً بالبنية التركيبية الذكائية - الحسية المتطورة من مرحلة إلى مرحلة أخرى خلال نمو الطفل وتطور دماغه .

والواقع لم يقدم بياجيه حجة وبرهنة علمية تدعم منهجه القائل بأن هذه الفاعليات البيولوجية اللغوية إنما هي (غامضة) . وكأننا لا نستطيع أن نبرهن على وجود الشيء إلا إذا لم يكن غامضاً أو على الأقل مريباً . وهذا بالضبط يشبه الحجة القائلة بأننا لا نستطيع أن نبرهن على وجود المواد انفيريانية داخل الشمس ذلك لأنها غامضة لا يمكن رؤيتها هذه الحجج لا تقوم على أساس

علمي فيزيائي تجريبي أبدأ .

ويمكنني القول بأن تدمير بياجيه وعدم رضاه عن المنهج البيولوجي اللغوي يمكن أن يكون صحيحاً ولكن على شرط واحد وهو فيا إذا كان بياجيه قد قال بأن الفاعليات الغريزية الفطرية اللغوية في الدماغ إنما هي (غير مشروحة بيولوجياً) أو كما يقال بالإنكليزية : (Biologically unexplained) وذلك بدل قوله السابق : « لا يمكن شرحها بيولوجياً » .

والحقيقة ، ليس هناك أية دلائل في البحوث اللسانية المعاصرة والسالفة تدعم منهج بياجيه وحججه ، إن إصرار بياجيه ومعاونه على صحة المنهج الذي يتبعونه إنما يشكل مثلاً آخر للدوغمائية والتزميتية في العلوم الإنسانية .

هذه الدوغمائية والتزميتية العلمية تتجلى بشكل أوضح في الأعمال والبحوث التي قام بها تلامذة بياجيه . لناخذ على سبيل المثال المناقشات والحجج التي عرضها انهلدر Inhelder وسنكلير Sinclair ثم بوفت Bovet . لقد هذه الدوغمائية والتزميتية العلمية تتجلى بشكل أوضح في الأعمال والبحوث التي قام بها تلامذة بياجيه . لناخذ على سبيل المثال المناقشات والحجج التي عرضها انهلدر Inhelder وسنكلير Sinclair ثم بوفت Bovet . لقد اقترح هؤلاء الباحثون ومن خلال استشهادهم بأعمال بياجيه بأنه « ليس هناك معرفة إنسانية سابقة للتطور الدكاتي الحسي ، وبعبارة أخرى ليس هناك أفكار غريزية فطرية وراثية لغوية في دماغ الطفل تلد عند ولادته اللهم باستثناء بعض الأشكال الوراثية البدائية جداً والتي تمكن الطفل من معرفة الموضوعات الخارجية . هذه الأشكال الوراثية البدائية قابلة للتطور والنضج الفكري حسب مراحل مختلفة من نمو الطفل وترعرعه . وهكذا ليس هناك على حد تعبيرهم - فاعلية نظامية كاملة للعملية اللغوية في دماغ الطفل ، فليس هناك سوى هذا الشكل الذي ينمو ويتشكل خلال نمو الطفل ونشاطه .

والواقع إن هذه المقترحات والحجج التي أتى بها تلامذة بياجييه إنها هي غامضة بحيث يصعب علينا تجديدها ومعرفة مغزاها . فإذا أخذنا على سبيل المثال الفرضية التي يسمونها بفرضية (البنية التطورية) فإننا نجد أنهم يدعون أن الضوابط النحوية كقيد الجزيرة الميمية Wh-Island والمبادئ الأكثر عمقاً في العملية اللغوية والتي يستند عليها مثل هذا الضابط النحوي ينبغي أن تكون ظاهرة في النشاط اللغوي للطفل .

إنه ينبغي على ظهورها أن يشبه تماماً ظهور التراكيب اللغوية الأخرى الناتجة عن الفاعلية الحسية الحركية المبكرة للطفل . الحقيقة أن ادعاء هذه المقترحات الحسية والإصرار على صحتها دون تقديم أي شاهد أو حجة تدعمها إنما يعتبر شيئاً غريباً في البحث العلمي . ويمكن أن نرى هذه المقترحات التي لا تستند على أية حجة أو برهان علمي في مدرسة جنيف النفسية . وهكذا فإننا نجد أن أحد روادها انهلدر يتفق مع بياجييه بأن منهج التطور الذكائي للقدرات العقلية هو المنهج السليم لمعرفة النظام النحوي عند الأطفال . إن كل ما فعله المنهج البيولوجي للفاعلية القطرية الغريزية الوراثية على حد تعبير انهلدر هو أنه مذهب حول منهج الدراسة من المستوى النفسي إلى المستوى البيولوجي . والحقيقة إذا كان لهذه الحجة التي أتى بها انهلدر أي فضيلة أو قوة واستحقاق فإنها ينبغي أن تطبق بالمعيار نفسه على المستويات المعيارية للتطور الفيزيائي أيضاً . لنفترض أن أحدهم أثبت أن الإنسان هو ثنائي العينين ثم إنه يطور ذراعين بدل جناحين وذلك بشكل وراثي فإن مثل هذا الافتراض والإثبات لن يساعد على معرفة البنية التطورية وفاعلياتها الموروثة من وجهة نظر مدرسة جنيف النفسية . إنه فقط سيحول المسألة من مستوى نفسي إلى مستوى بيولوجي . وهكذا فإن هذا الافتراض والإثبات لن يفيد شيئاً ولن يثبت أي حقيقة تتعلق بالتطور الفيزيائي للإنسان . فإذا كانت بنية الرؤية الإنسانية تقوم على أساس ثنائي بشكل وراثي (كما أعتقد) فإنه من

الطبيعي عندئذ أن نبحث عن أصل هذه البنية ثم شرحها بعبارات بيولوجية
تطورية نشؤية وهذا بالطبع أفضل بكثير من الناحية العلمية من أن نشرحها
بعبارات بيداغوجية تعليمية .

وبعبارة أخرى ينبغي علينا أن نحول البحث المتعلق بمعرفة الفاعليات
الميكانيكية في الدماغ البشري من دراسة نفسية إلى دراسة بيولوجية تشريحية .
والواقع يمكننا دراسة الكمبة العلائقية الناتجة عن البنية الدماغية بنفس
المعيار البيولوجي ، وهكذا فإنه يمكننا سبر التراكيب الإدراكية لهذه البنية
الدماغية ثم دراسة الميكانيكيات الفيزيائية المستترة داخل هذه التراكيب .

وهكذا فإذا وجدنا شاهداً مكثفاً يستطيع أن يثبت المبادئ التي تقوم
عليها الضوابط النحوية كالضوابط النحوي Wh-Island فعندئذ لا يبقى أي مجال
للشك بأن هذه الميكانيكيات والفاعليات الدماغية هي وراثية وبالتالي فإنه
ينبغي أن ندرسها ضمن إطار بيولوجي تشريحي .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وهكذا نجد أن المنهج التطوري الوراثي الذاتي الذي نأخذ به والذي
يفترض بأن المبادئ والقدرات العقلية هي (نظام آلي منظم لذاته) ، إنما هو
منهج متفق مع منهج (البنية التطورية) ، الذي أخذت به مدرسة جنيف
النفسية . فإذا كان ذلك كذلك فإنني لا أستطيع تفسير مدرسة جنيف إلا على
هذا الأساس وإن كانت الحجج والبراهين التي أتت بها لا تقف أمام النقد
التجريبي العلمي .

على أية حال ، إن مدرسة جنيف النفسية تشكل فصلاً آخر من فصول
الدوغماية التزمتية في التاريخ الحديث . ولكن هذا لا يعني بأنني أقترح بأن كل
ما أتى به علماء النفس المنتمين إلى مدرسة جنيف هو خطأ وغير صائب ، على
العكس من ذلك ، إنني فقط أتساءل لماذا يؤكد هؤلاء العلماء بأن كل ما أتوا به

هو الصحيح . ثم إنني أتساءل كيف يمكن هؤلاء العلماء أن يقبلوا بمنهج التطور الذكائي للقدرات العقلية الذهنية ثم في الوقت نفسه يرفضون منهج التطور والنحو الفيزيائي لأعضاء الجسم الإنسانية .

وباختصار ، لماذا يجب أن تكون المناهج والفرضيات المتعلقة بالمعرفة العلمية الفيزيائية للتطور الإنساني محظورة وممنوعة على الباحثين ثم في الوقت نفسه نسمح لأنفسنا بقبول المناهج والفرضيات المتعلقة بالمعرفة العقلية وتطور قدراتها الإدراكية ؟

جـ - ما بين تشومسكي والمدرسة النفسية الروسية :

وأخيراً أريد أن أتعرض للمنهج اللساني النفسي الذي تبناه العالم الروسي المشهور آ - لوريا A. R. Luria الذي يعتبر قطباً من أقطاب علم النفس العصبي الروسي . لقد أكد هذا العالم بأن التعليل والشرح العلمي المهادف لمعرفة أصل القواعد النحوية الكلية أو إذا أردنا الدقة . . . أصل القواعد النحوية الكلية التي تعمل عليها الضوابط النحوية Wh-Islands إنما يمكن (في تاريخ مجتمعتنا ثم في الأشكال النشيطة لعلاقات الإنسان بالواقع) .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه على آ - لوريا هو التالي : كيف يمكن لمبادئ النحو الكلي أن تنبثق من خلال هذا الإطار الذي اقترحه ؟ إن آ - لوريا لا يقدم أي جواب على ذلك ولو حتى بطريقة غامضة أو مفترضة . إن آ - لوريا يشبه في هذا المجال عالم النفس السويسري بياجيه ومعاونه ، عندما دافعوا عن مناهجهم بحجة غير علمية . إن حجة آ - لوريا القائلة بأن هناك مبادئ معينة من القواعد الكلية المحددة بشكل وراثي يجعل هذه الحجة خارجة عن المشكلة التي نحن بصدد حلها .

وهذا يعني بحد ذاته أن أي شرح أو تعليل مستمد من إطار خارجي لن

يقودنا إلى أي نتيجة علمية . وتراني أكرر مرة أخرى لأقول بأن منهج آ - لوريا الداعي إلى دراسة الفاعلية الفطرية الغريزية الوراثية في الدماغ بإطار علائقي يربط الإنسان بالواقع إنما لا يستند إلى أية حجة أو برهان علمي وذلك لسبب بسيط وهو أنه إذا كان ما يقوله صحيحاً فإن هذا ينبغي أن يُطبق على التطور العضوي الفيزيائي للإنسان الذي هو تطور خارج عن علاقة الإنسان بواقعه . والواقع إن حجة آ - لوريا في شرح الفاعلية العقلية يشبه تماماً تلك الحجة التي تقول بأن للإنسان ذراعين لا جناحين . إن التطور الفيزيولوجي للذراعي الإنسان إنما يعود إلى شكل وراثي . إن هذه الحجة لا تقدم أي إثبات علمي بل إنها لن تقود العالم الفيزيولوجي إلى أي مكان .

فإذا كان آ - لوريا لم يقدم أي اقتراح وتعليل علمي لمعرفة البنية البيولوجية الوراثية للقدرات العقلية فإنه لا خيار لنا بعد ذلك إلا أن نفسر ونعلل حجته التي أتى بها على النحو التالي :

إن التطور والنحو الإدراكي للقدرات العقلية هو تطور مختلف بشكل جوهري عن التطور والنحو العضوي الفيزيائي . . أي إن هذا التطور للقدرات العقلية هو تطور غير وراثي ، وهكذا فإنه منفصل عن علم البيولوجيا حسب منهج آ - لوريا ، بالإضافة إلى ذلك يقترح آ - لوريا عدة مقترحات تجريبية تتعلق بالخطوات التي (يجب) أن نؤمن لها ثم بالخطوات التي تقودنا إلى الموضوع الذي (يجب) علينا أن نظفر فيه وذلك من أجل معرفة الأصول التي يركز عليها النحو الكلي والظاهرة اللغوية بشكل عام . وبعبارة أدق ، إن منهج آ - لوريا (يفرض) علينا بأنه من الواجب أن ننظر في العلاقات الجدلية بين الموضوع النشط وبين الواقع ، وليس في العلاقات التي تجري داخل في الدماغ البشري نفسه .

وهكذا يمكن للمرء أن يلاحظ أن منهج آ - لوريا لا يقدم أية

إشارة أوحجة لمثل هذا الادعاء الذي أتى به بل على العكس من ذلك إن منهجه حسب رأيه يجب أن يكون صائباً ، ويمكننا أن نستنتج أن مثل هذا الادعاء هو ادعاء سطحي غير ضروري وذلك لأنه لا يستند إلى الحقائق العلمية . فإذا أخذنا بهذا المنهج الذي يدعو إليه آ - لوريا فعندها يجب علينا أن نفترض ودون تجربة علمية بأن منهجه سيبيّن لنا بأن الضابط النحوي Wh - Island المستند على مبادئ النحو الكلي للغات إنها هو ضابط نحوي يكتسبه الطفل من خلال (العلاقة الجدلية النشطة بين الموضوع الخارجي والواقع المحيط به) ، أوبعبارة أخرى من خلال (الانعكاس الواقعي في الموضوعات الخارجية) .

وستطيع المرء أن يلاحظ أن إشارة آ - لوريا إلى (تاريخ مجتمعتنا) إنما هي إشارة جوهرية في المنهج الذي يدعو إليه . . . وهذا يعني أن اللغة هي فاعلية لغوية يحددها المجتمع وعلى الطفل أن يكتسبها من خلال هذا الإطار الاجتماعي . والغريب في الأمر أن آ - لوريا اعتبر منهجه (منهجاً علمياً لا يتباه الشك) . وهكذا يمكننا أن نسجل فصلاً آخر من فصول الدوغمائية المتزمتة في العلوم الطبيعية .

والواقع أن كل هذه المناهج الدوغمائية التزمتية التي عرضتها إنما تثبت حقيقة واحدة وهي أن إيريك لينبرغ كان على صواب تام عندما أكد بأن : « وصف الفاعليات والميكانيكيات الفطرية الغريزية الوراثة للغة في الدماغ البشري إنما هو طريقة تجريبية مرتبطة بالمعرفة العلمية الحديثة » . بل أستطيع أن أضيف أكثر من ذلك لأقول بأنه لا مجال لأي شكل من أشكال الدوغمائية والتزمتية المفروضة بشكل مسبق في البحوث العلمية التجريبية الحديثة . والحقيقة أنه ليس من السهل لكثير من الباحثين حتى اليوم أن يتقبلوا البحث العلمي التجريبي الحديث طالما اعتادوا على الدوغمائية والتزمت في البحوث

المتعلقة بالدماغ وقدراته العقلية الإدراكية . وتزداد المأساة تراجيدية عندما نذكر بأن كثيراً من العلماء كانوا قد أُجبروا على مشايعة مثل هذه الدوغمائية والتزمت العلمي بغض النظر عن مذاهب هؤلاء العلماء التي يمكن أن تكون مذاهب نفسية سلوكية أو مذاهب بنوية تطويرية أو ما أشبه ذلك .

والواقع أن الاعتقاد الذي يؤمن به آ - لوريا والقائل بأن : « البنى التركيبية الموجودة في الدماغ البشري إنما هي انعكاس للعلائق الجدلية المتداخلة بين الموضوع النشط وبين الواقع الخارجي » إنما هو اعتقاد يرجع إلى مذهب أكثر شمولية ذلك المذهب يعرف بـ (المذهب السلوكولاستيكي) Scholastic doctrine ذلك المذهب الذي لا يسمح بأي تغيير أو تبديل وتطوير يمكن أن يطرأ عليه (بالرغم من أن آ - لوريا كان قد اقترح بأن منهجه أكثر انفتاحاً من الإطار الأيديولوجي الماركسي) .

ويمكننا أن نقول بأن بعض التجارب المطبقة على البنية البيولوجية لعملية الرؤية ولعملية الإدراك عند بعض الفصائل الحيوانية الذكية (كالشمبانزي) إنما سيساعد على التغلب على مثل هذه العوائق والخواجز ويحد من محدودية البحث البيولوجي . وهذا بالطبع سيمكن عالم اللسان البيولوجي من معرفة البنية البيولوجية للغوية عند هذه الفصائل الحيوانية والتي بدورها ستعمق فهمنا لطبيعة البنية البيولوجية للغوية عند الفصائل الإنسانية .

إن الدراسة البيولوجية لأنظمة المقدرة اللغوية التجريدية عند الإنسان ستقدم نتائج ممتازة وعطاءات زاخرة في المستقبل يمكن لها أن تعرفنا على طبيعة العلاقات والكميات والميكانيكيات العاملة في هذه المقدرة اللغوية .

والحق يقال لقد طور إيريك لينبرج المناهج البيولوجية للغوية تطوراً رائعاً بحيث يمكنها أن تقدم نتائج واعدة في هذا الحقل . إن هذا التطوير

البيولوجي سيسير جنباً إلى جنب مع التطوير الذي تم في حقول عديدة من المعارف البشرية والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بالدراسات اللسانية البيولوجية . وباختصار ، إن دراسة الأسس البيولوجية للغات الإنسانية ستثبت أنها من أهم ما انتهى إليه العلم الحديث في السنوات المقبلة .



أدريان هنري :

شاعر شعبي من ليفربول

• د. سليمان محمد أحمد

تمهيد :

بدأت فكرة هذا الموضوع منذ أكثر من عشر سنوات ، في سنة ١٩٧٢
تحديداً . كنت يومها في السنة الأولى من دراستي العليا في جامعة ليفربول . في
يوم أحد في شهر نيسان زرت معرض جون مورز الثامن في متحف ووكر للفن .
وفي ذلك المعرض نال الجائزة الثانية (وقدرها ألفا جنيه) فنان من ليفربول هو
ادريان هنري . وقد أثار هنري اهتمامي عندما قرأت في دليل المعرض أنه ليس
رساماً فحسب ، وإنما شاعر وقطب رحي في الحياة الفنية في المدينة . في
الأسبوع التالي قرأت بعض قصائده ، في مجموعة شعرية شاركه فيها شاعران
ليفربوليان آخران هما روجر ماكغف وبرايان باتن . عنوان المجموعة صوت
الميرزي ، والميرزي هو النهر الذي تقع عليه ليفربول^(١) .

(١) تحمل المجموعة رقم ١٠ في سلسلة (شعراء بنغوين الحديثون) صدرت الطبعة
الأولى في ١٩٦٧ وأعيد طبعها في ١٩٦٨ (مرتين) و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ (مرتين) و ١٩٧١
و ١٩٧٣ . ثم صدرت طبعة ثانية موسعة ومنقحة في ١٩٧٤ عن دار نشر بنغوين في
هاموندزورث .

أطلق النقاد على هؤلاء الشعراء الثلاثة اسم (الشعراء الشعبيون) (The pop Poets) . وظاهرة (البوب) في الشعر الإنكليزي تعود إلى الستينات من هذا القرن^(١) وترتبط ارتباطاً وثيقاً بمدينة ليفربول . يقول روجر ماكغف : « الظاهرة في اعتقادي ليست ظاهرة ليفربول بالمقارنة مع ظاهرة في برمنغهام أو ظاهرة في نيوكاسل ، وإنما هي ظاهرة ليفربول بالمقارنة مع ظاهرة في لندن أو ظاهرة في العاصمة أو ظاهرة متصلة بالمدارس الخاصة . أنت أكثر انشغالاً وتعلقاً بالمكان ، أنت أكثر انشغالاً وتعلقاً بالمدينة في ليفربول من انشغالك وتعلقك بلندن مثلاً »^(٢) وليفربول ، التي وصفها أحد الإعلانات بمدينة التغير والتحدي ، تنظر إلى نفسها كشيء متميز : في الشعر ، في الموسيقى ، في كرة القدم . وفي الستينات قال عنها الشاعر الأمريكي آلن غينزبرغ : « إنها في الوقت الحاضر مركز الشعور في عالم الإنسانية . إنهم يعيشون الشكل الإنساني الإلهي هناك - أولئك الفتية الوسيمون بشعرهم الطويل الأشقر الملائكي »^(٣) وغينزبرغ يشير هنا إلى البيتلز - جون لينن وبول ماك كارتني ورينغوستار . وكما قال هنري ، كان هؤلاء : « أول ظاهرة ثقافية من أي نوع تصل إلى الشهرة خارج لندن »^(٤) . وكان لشهرتهم أثر عظيم على الثقافة المحلية في انكلترا كلها ، لا في ليفربول وحدها - وبالطبع أصاب الشعراء في ليفربول نصيب من ضوء شهرتهم ومجدهم^(٥) .

(٢) انظر تعليق ادوارد لوسي - سميث في كتاب (شعراء معاصرون) تحرير جيمس

فينسن ، طبعة ثانية (لندن : ماكميلان ، ١٩٧٥) ص ٦٧٤ ، ١٠٢٢ ، ١١٧٢ .

(٣) ادوارد لوسي سميث (محرر) ، المشهد الليفربولي (١٩٦٧ : لندن : راب

ووايتينغ ، ١٩٧١) ص ٢٠ ، الكتاب مهدى (إلى البيتلز) .

(٤) المصدر نفسه ، ص ١٥

(٥) المصدر نفسه ، ص ٢١

(٦) المصدر نفسه ، ص ٤

أخذ الشعراء الثلاثة الشعر إلى الجمهور : في الحان ، في قاعات الحفلات ، في الجامعة ، في النوادي . . يقول هنري : « أصبح لنا نوع من الجمهور يتبعنا ، أناس معظمهم في مرحلة المراهقة أوفي أوائل العشرينات ، ومعظمهم من غير المثقفين . . . »^(٧) ، ويقول ماكغف : « في قراءتنا ليلة كل اثنين في حانة سامسن وبارلو ، لم تكن الشبيبة تنظر إلى ما نقرأ على أنه شعر بالمعنى الدقيق للكلمة ، كانوا يرونه فيه تسلية حديثة ، جزءاً من حركة (البوب) ربما غادروا الحانة باكين أو حزينين جداً ، ولكن حضورهم كان خبرة معينة بالنسبة لهم ، جزءاً من الخبرة الإنسانية »^(٨) ، هذا يعني أن تأثير شعر هؤلاء يعود إلى كونه مسموعاً لا مقروءاً . إن القصيدة عندهم : « لم تعد شيئاً مصنوعاً وإنما خدمة ؛ إنها وسيلة لا غاية » والتأثير الذي تحدثه القصيدة أكثر أهمية بالنسبة لهم من القصيدة نفسها . من هنا لم تعد القصيدة السيئة جرماً بالضرورة . فإلهم في نظرهم صدق العاطفة^(٩) .

ARCHIVE

<http://Archive.Sakhril.com>

يعتبر ادريان هنري النموذج الأمثل للشاعر (الشعبي) بين شعراء الستينات في ليفربول^(١٠) فلنقرأ معاً بعضاً من قصائده مترجمة لنرى خصائص شعره . ولكن قبل كل شيء دعني أبدأ بالتعريف به .

ولد ادريان هنري في بيركنهيد (التي تقابل ليفربول على الضفة الثانية لنهر الميرزي) في العاشر من نيسان سنة ١٩٣٢ م لأسرة فقيرة . كان والده

(٧) المصدر نفسه ، ص ٧٨

(٨) المصدر نفسه ، ص ٧٨

(٩) المصدر نفسه ، ص ٧ - ٨

(١٠) جيمس فينس (مج) ، شعراء معاصرون ، ص ٦٧٢ - ٦٧٤

موظفًا حكوميًا صغيراً إذا دخل محدود . تلقى اديان تعليمه الأول في مدرسة سينت آصف في شمال ويلز (١٩٤٥ - ١٩٥١) ثم ذهب إلى الملكية في نيوكاسل (وهي إحدى كليات جامعة درهام) ، حيث حصل على الإجازة في الفنون الجميلة بمرتبة الشرف سنة ١٩٥٥ . وأثناء دراسته الجامعية كان يعمل في العطلة في مدينة للملاهي لينفق على نفسه في الشتاء . تزوج سنة ١٩٥٨ من جويس ويلسون ، ولكنهاما افترقا . (انظر قصيدة « مَنْ ؟ ») .

عمل هنري مدرساً في كلية مانشستر للفن والتصميم (١٩٦١ - ١٩٦٤) وفي كلية ليفربول للفن (١٩٦٤ - ١٩٦٨) . وفي سنة ١٩٦٨ شكل فرقة (ليفربول سين) للشعر والغناء والموسيقى وقام بجولة مع الفرقة في أمريكا (١٩٦٩) . وفي سنة ١٩٧٠ انفرط عقد الفرقة نتيجة إصابة هنري بمرض في القلب . وقد اشترك في معارض فنية عدة في ليفربول وبلفاست وميلانو ولندن ، ونال جائزة مجلس الفنون في أيرلندا الشمالية (١٩٦٤) وجائزة معرض جون مورز في ليفربول (١٩٧٢) .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كتب هنري الشعر والمسرحية والرواية . فأعماله الشعرية تشمل صوت الميرزي الذي ذكرناه سابقاً ، هذه الليلة عند الظهيرة (١٩٦٨) ، المدينة (١٩٦٩) سيرة ذاتية (١٩٧١) ، أمريكا (١٩٧٢) ، أسبحة المدينة : قصائد ١٩٧٠ - ١٩٧٦ (١٩٧٧) ومن الموتيل غير المحبوب : قصائد ١٩٧٦ - ١٩٧٩ (١٩٨٠) . وله مسرحيتان : أتساءل ، بالاشتراك مع مايكل كوستو (١٩٦٨) والمسرحية التلفزيونية فتاة البارحة (١٩٧٣) . كتب أيضاً رواية أريد بالاشتراك مع نل دن (١٩٧٢) وكتاب بيئات وأحداث (١٩٧٤) .

ومن تسجيلاته (بالاشتراك مع فرقة « ليفربول سين ») شركة سنت اديان وبرودواي والشارع الثالث (آر سي اي ، ١٩٧٠) هيرلون (آر سي

اي ، ١٩٧٠) ، وذكريات (كاريزما ، ١٩٧٢) وسيرة ذاتية (كانن ، ١٩٧٤ ، اسطوانتان) (١١) .

يقول هنري : « إنني أعتبر نفسي صانعاً ومقديماً للصورة بوسائط مختلفة . واعتقد أن الشاعر الشعبي أكثر القايي شيوعاً ... » (١٢) .

« ليس بإمكانك أخذ لوحاتي وترك قصائدي . ولكنني لم أقصد أبداً أن يكونا مكملين أحدهما للآخر . . . إن الشعر أكثر كفاءة من الرسم بكثير ، كأداة للاتصال . فالرسم يؤدي عمله بشكل مختلف تماماً . الشعر ، بالشكل الذي أكتبه في الوقت الحاضر ، يلقي إلقاء . إنه يشبه الهاتف ، كما تعرف ، والهاتف جهاز اتصال يتصف بالكمال . تضع الرسالة في طرف فتم وتخرج من الطرف الآخر . الشعر مثل ذلك !

« إنني أخذ قيمي من الرسم . وأقرأ الشعر قراءة هاوٍ . لقد أحببت دوماً إلقاء الشعر ، ولكنني درست الرسم في الجامعة . والفرق بين الرسم والشعر في رأيي هو أن الرسم يشبه جهازاً للإذاعة . فالرسالة ترسل ولكنك لا تعرف عن استقبالها شيئاً . ولكنك تعرف في حالة الشعر - الشعر المحكي على الأقل - أن هناك من يتلقى شعرك على الطرف الآخر من الهاتف . الرسم عمل في عزلة : تقوم به في تلك الغرفة ثم تؤخذ اللوحة ، تؤخذ إلى صالة للفن في مكان ما أو إلى بيت أحدهم . ثم لا تعلم أبداً كيف يستجيبون لها فعلاً . ليس عندك وسيلة لمعرفة تأثير لوحاتك على الناس . أما عندما تقرأ قصائد أمام جمهور فإنك تعرف هل أحببها أم لم يحبها . . . ؟ !

« تأثرت بالشاعرت . س . اليوت وإبوللنير وما لارميه وغينزبرغ

(١١) المصدر نفسه ، ص ٦٧٤

(١٢) لوسي - سميث (مع) ، المشهد الليفيبولي ، ص ٧١

وأولسن ، وفي الفترة الأخيرة بتنيسن وكريلي وهيوماكديرميد . كذلك تأثرت
بثرجويس وويليام برز . إنني شاعر ذاتي : قصائدي امتداد لحياتي ، بعضها
حقيقة وبعضها خيال . ولذا أكتب قصائد الحب أكثر من غيرها .

تثري الاستعمالات الجديدة للغة في أجهزة الإعلام ، كما في الإعلانات
التجارية في التلفزيون أو في أغنيات (البوب) ، أما اهتمامي بأشكال الشعر
(الأقدم) (القافية وغيرها) ، فمقصود على ما استمر منها في الحياة في
المجتمع الحديث : الأغنية الشعبية (البالاد) على سبيل المثال والبلوز ،
بشكل خاص ^(١٣) .

في عام ١٩٧٤ كتب هنري يقول : « تغيرت طريقة حياتي وإلى حد ما
طريقة عملي بعد إصابتي بمرض خطير في القلب سنة ١٩٧٠ . ربما كان
شعري الآن أكثر هدوءاً وأكثر تقليدية ، وبعد قضائي بعض الوقت في مقاطعة
سمرست وشرويشير أخذت أهتم بشعر الطبيعة الإنكليزي ، وبخاصة شعر
وردز ورث وهاوسمان وبرسامي مدرسة ما قبل الرفائيلية » ^(١٤) .

(١٣) فينسن (مج) ، شعراء معاصرون ، ص ٦٧٤ البلوز نوع من الأغنية
الحزينة ، أمريكية زنجية الأصل .

(١٤) المصدر نفسه ، ص ٦٧٤ . مدرسة ما قبل الرفائيلية مدرسة فنية إنكليزية
أنشأتها حوالي ١٨٥٠ مجموعة من الفنانين والنقاد تضم ويليام هولمان هنت وجون افريت ميل
وداني غابرييل روزيقي وتوماس وولتر وجيمس كولنسن . سعى هؤلاء للعودة إلى الأشكال
الفنية المستعملة قبل عهد رفايل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) ولإضفاء الصبغة الأخلاقية على فهم
بدراسة الطبيعة دراسة دقيقة واختيار موضوعات نبيلة ترفع مستوى المشاهد . انظر دليل
اكسفورد إلى الأدب الإنكليزي ، جمعه وحرره السير بول هارفي ، طبعة رابعة نقيحتها
دورثي ايفل (اكسفورد : مطبعة كلاريندن ، ١٩٦٩) ص ٦٦٢

مختارات ١٥

هذه الليلة عند الظهيرة ١٦

(مهداة إلى تشارلز منغيس وفرقة كلايون سكوير)

هذه الليلة عند الظهيرة

ستعلن المتاجر الكبرى زيادة ثلاث بنسات على كل سلعة

هذه الليلة عند الظهيرة

سيرسل أطفال العائلات السعيدة ليعيشوا في ملجأ

ستروي الفيلة أحدها للأخر ككائنات إنسانية

ستعلن أمريكا السلام على روسيا

سيبيع جنرالات الحرب العالمية الأولى أزهار الخشخاش في الشوارع

في الحادي عشر من تشرين الثاني

ستظهر أولى أزهار النرجس البري الخريفية

عندما تسقط الأوراق باتجاه الأعلى عائدة إلى الأشجار

(١٥) القصائد مأخوذة من الدواوين التالية : هذه الليلة عند الظهيرة (١٩٦٨) :

(هذه الليلة عند الظهيرة) ، (أريد أن أرسم) ، (من ؟) ، و (إعلانات تجارية

للقنبلة) ، أسبجة المدينة (١٩٧٧) : (في ساعة منتصف الليل) و (زمن الحرب) ، من

الموتيل غير المحبوب (١٩٨٠) : (قصيدة أبلولية) .

(١٦) عنوان القصيدة مأخوذ عن أسطوانة لتشارلز منغيس ، هذه الليلة عند الظهيرة

هذه الليلة عند الظهيرة
ستصطاد الحائم القطط في حدائق المدينة الخلفية
سيقول لنا هتلى أن نقاتل على الشواطىء وحقوق الإنزال
سيحفر نفق مليء بالماء تحت ليفربول
ستشاهد الخنازير طائرة في تشكيل فوق وولتون
سيستعيد نلسون عينه وذراعه أيضاً
سيظاھر الأمريكيون البيض من أجل المساواة في الحقوق
أمام البيت الأسود
والمسخ خلق لتوه د . فرانكنشتاين

الفتيات لابسات البيكيني يأخذن حمام قمر
الأغنيات الشعبية يغنيها أناس من الشعب حقاً
متاحف الفن مغلفة أمام من تجاوزوا ٢١
يدخل الشعراء قصائدهم قائمة أعلى ٢٠ أغنية مبيعاً
السياسيون يتخبون لمشافي المجانين
هناك عمل لكل امرئ ولا أحد يريد عملاً
في الشوارع الخلفية وفي كل مكان العشاق المراهقون يقبلون
في وضوح النهار
في مقابر منسية وفي كل مكان سيدفن الموتى
الأحياء بهدوء
و
ستقولين لي إنك تحبينني

أريد أن أرسم

القسم الأول

أريد أن أرسم

٢٠٠٠ طائر ميت مصلوبة خلفها الليل

أفكاراً عميقة بحيث لا تستجرها الدموع

أفكاراً عميقة بحيث لا يفهمها الشواذ

أفكاراً تسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل / ثانية

دخول المسيح إلى ليفربول في ١٩٦٦

ARCHIVE

(١٧) الحادي عشر من تشرين الثاني هو يوم الذكرى في بريطانيا ، ذكرى الذين ماتوا في الحربين العالميتين . فالحرب العالمية الأولى انتهت في الساعة الحادية عشرة صباحاً يوم الحادي عشر من تشرين الثاني (١٩١٨) . ولذا تقرر أن يكون هذا اليوم يوم ذكرى يقف الناس فيه دقيقتي صمت في الساعة الحادية عشرة . وزهرة الخشخاش أصبحت مرتبطة بهذا اليوم لرمزها لمأساة الحرب . فقد مات الملايين في القتال في شمال فرنسا وتدمرت المحاصيل . ولكن أزهار الخشخاش الحمراء ازدهرت . وأزهار الخشخاش الاصطناعية تباع في الأسبوع السابق ليوم الأحد القريب من ١١ تشرين الثاني لمساعدة ضحايا الحرب . وولتسون حي من أحياء ليفربول . نلسون : ادميرال وبطل بريطاني قتل في معركة الطرف الأغر (١٨٠٥) .

فرانكنشتاين : في قصة ماري شيللي بهذا الاسم (١٨١٨) بالطبع فرانكنشتاين هو الذي خلق المسخ . (المترجم) .

تنصيب روجر ماكغف أستاذاً للشعر في أكسفورد
فرنسيس بيكون يلقي خطبة الرئيس في حفل عشاء الأكاديمية الملكية

أريد أن أرسم

٥٠ لوحة بالحجم الطبيعي لماريان فيثفول عارية
(كلها مرسومة من الطبيعة)

فتيات ويلزيات عند شلالات ويلزية

هزر هولدن كعذراء هزلنغدن

لوحة بحجم بيكاديلي مليئة بأنوار النيون والباصات

وزينات عيد الميلاد والفتيات الجميلات اللواتي يظلمن وجوههن

بشعرهن الأشقر الداكن

أريد أن أرسم

اغتيال العائلة المالكة بأسرها

لوحات ضخمة للطلاط رصيف شارع كانبينغ كلها

البيتلز يؤلفون نشيدا قوميا جديدا

براين باتن يكتب قصائد بقاذف لهب على معديات مهجورة

كاتدرائية جديدة ارتفاعها ٥٠ ميلاً مبنية بأكملها من عجلات عربات

الأطفال

علبة وودباين فارغة مغطاة بالقبل

أريد أن أرسم

لوحة من دموع الأطفال ذوي الوجوه الوسخة في شارع تشاتام

أريد أن أرسم

أ ح ب ك على درجات قاعة القديس جورج

أريد أن أرسم

لوحات

القسم الثاني

أريد أن أرسم

وجوه الموت التاريخية والمتزامنة

١٠٠٠٠ قلب وردي مرقع اسمك عليها

ساعة البريد السود الوهميين الذين يحضرون المال لي في أحلامي

أول زهرة نرجس برية بلاستيكية في الربيع تشق طريقها

عبر علب أومو في المتجر الكبير

صورة كل طالبة شهادة ثانوية في البلاد

خارطة كبرى للعالم أنت في مركزها

زهرة مضغف ضخم كل زهرة على لوحة مستقلة

أطفالاً من الهلام بالحجم الطبيعي بشكل هيلي ميلز

علماً أسود وأحمر يخفق فوق البرلمان

أريد أن أرسم

كل صدام للسيارات على طرق انكلترا

الاب أوبو سكران في الساعة ١١ ليلاً في شارع لايم

ج ن ون أم ن ظ م أ ل ج م ي ع ا ل ح و ا س

بحروف سوداء متصلة بارتفاع ٥٠ ميلاً فوق ليفربول

أريد أن أرسم

لوحات يستطيع الأطفال أن يلعبوا بها لعبة الحجلة

لوحات يمكن استعمالها دليلاً في محاكمات القتل

لوحات يمكن استعمالها للدعاية لرفائق الذرة المحمصة
لوحات يمكن استعمالها لإخافة الأطفال العابثين
لوحات تساوي وزنها مالاً
لوحات يستطيع المتشردون العيش فيها
لوحات يجدها الأطفال في جوارهم صباح عيد الميلاد
لوحات يستطيع العشاق المراهقون تبادلها فيما بينهم
أريد أن أرسم
لوحات ١٨

(١٨) في عام ١٩٦٦ دشنت الكاتدرائية الكاثوليكية في ليفربول باسم كاتدرائية المسيح الملك .

من الممتع أن نذكر أن روجر ماكغف انتخب زميلاً للشعر في جامعة لفيره للتكنولوجيا
(١٩٧٣ - ١٩٧٥) .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فرنسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) فيلسوف ورجل سياسة وأديب إنكليزي ، له الفضل في إدخال الطريقة الاستنباطية إلى ميدان العلوم .

ماريان فيثفول ملكة جمال ، وهزر هولدن شاعر ليفربولي . وهزلنغدن بلدة تقع على بعد ٣٠ كم شمال غرب مانشستر . بيكاديلي ساحة في لندن مشهورة ، شارع كانينغ شارع في ليفربول ٨ كان هنري يسكن فيه في الستينات . وودباين نوع من السجائر . شارع تشاتام شارع قريب من شارع كانينغ . قاعة القديس جورج واحدة من أضخم المباني ذات الطراز اليوناني - الروماني في إنكلترا . أومو ماركة مسحوق صابون للغسيل .

الأب أوبو شخصية غريبة خلقها الكاتب الفرنسي ألفرد جاري (١٧٧٣ - ١٩٠٧) الذي تأثر به كتاب مسرح العبث . أحب أن أذكر هنا أن هنري رسم لوحة زيتية بعنوان (الأب أوبو في ليفربول) ، وهي التي نال عليها جائزة مجلس الفنون في إيرلنده الشمالية (١٩٦٤) . اللوحة تمثل أوبو ماشياً في شارع لايم الواقع في قلب ليفربول . (المترجم) .

من ؟

من أستطيع
أن أقضي حياتي
معه
من أستطيع
أن أستمع معه إلى جورج براسين
يعني :

« Les amoureux des bancs publics »

من أستطيع
أن أذهب إلى باريس معها
نسكر في الليل مع
زنوج طوال يلبسون ثياباً جميلة
من أستطيع
أن أتشاجر معها
خارج مطاعم السمك والبطاطا
في الشوارع الجانبية
على منبسطات الدرج
من غيرك
يستطيع الغناء مع شوستكوفيتش
من غيرك
يوقع بطاقة عيد الميلاد
« قذيفة مدفع »
من غيرك

يستطيع تشغيل سخان الحمام

من غيرك

يشرب كثيراً من البيرة

من غيرك

يطبخ وجباتي المفضلة كلها

ما عدا الوجبات التي أحضرها

بنفسي

من غيرك

يرد على نباح الكلاب

في الشوارع المضاءة بالمصابيح والقمر

من غيرك

أجدها

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.org>

تنتظري بعينين واسعتين سوداوين

في زاوية نادي جاز محلي

تقولين

لم نعد

ننسجم معاً

ولكن

من أستطيع

أن أضحك معها على الشواطئ

متعجبين من الصوت

الذي تحدّثه الرخويات

وهي تمتص مياه المد

من

أستطيع
أن أشتري معها
أسطوانة أخرى لمايلز ديفز

من
تحضر القهوة بالطريقة التي تعجبني

و
تحب الطريقة التي كانت تعجبني

من
جاء من الشمس إلى بيتي

يوم

ابتعد العالم

عني

من

لا يغسل الثياب التي أحتاجها دائماً

من

يصرف الأموال

من

يرتدي (الروب دوشامبر) الخاص بي

ويترك دائماً الأكمام مطوية

من يجعلني أحس

خاوياً كالبيت

عندما لا تكون هي هناك

من

إلا

أنت ١٩

مهداة إلى جويس

إعلانات تجارية للقنبلة

(يؤديها صوتان)

١. أ - احصل على لحم بي أي دي النووي المخصص للبشر .

ب - لا تعط أسرتك لحماً عادياً ، أعطهم بي اي دي

أ - بي . اي . دي — يطيل الموت الفعلي

ب - مدعم بالاسترنتيوم المغذي المأخوذ من العظم النخاعي

٢. أ - في جميع أنحاء العالم ، مزيد من الناس يعدلون إلى

ق ن ب ل ة

ب - ق ن ب ل ة - جواز السفر الدولي إلى الانقراض المحروقة .

٣. ب - . . . ثم قلت : « حسناً دعنا نذهب جميعاً في نزهة وذهبننا وكانت

الأمور على ما يرام باستثناء بعض الرمل في شطائر الزبدة والزنايبير بالطبع ،

ووقوع مايكل في النهر ولكن ليس بمستطاعك نيل الكمال أليس كذلك عندها

(١٩) معنى أغنية براسين : (عشاق المقاعد العامة) .

ديميتري شوستكوفيتش (١٩٠٦ -) مؤلف موسيقي روسي كتب سيمفونيات

وأوبرات وموسيقا للبيانو ، إلخ .

حدث انفجار ضخم واشتمل المكان كله وحدث شيء لذراعي مايكل ولا أعلم ما حدث لزوجي ولعله أمر حسن إذ كان لدينا أربع قطع شوكولا كيت - كات فأكل كل منا قطعة ثم اضطررنا للعودة على الأقدام لعدم وجود باصات .

أ - استرح قليلاً تناول كيت - كات .

٤ . أ - يستنشق الناس الغبار الذري المتساقط كل يوم في المدن في جميع أنحاء انكلترا .

ب - تخلص من مذاق القنبلة في فمك بتناول أوفل فروتس .

٥ . أ - كبس الجنرال هوارد ج . شيرمال لشوه الزر الذي قتل ٢٠٠ مليون إنسان . إنه عمل كبير ذو مسؤليات كبرى . فعلى الجنرال أن يقرر بين السلام وإبادة الجنس البشري . . .

ب - لكنه لا يستطيع التمييز بين المارجرين والزبدة .

في ساعة منتصف الليل

حين نلتقي

في ساعة منتصف الليل

يا فتاة الريف

سأحضر لك أزهاراً ليلية

ملونة كعينيك

(٢٠) بي . اي . دي هي الحروف الأولى من كلمات

Prolongs Active Death (يطيل الموت الفعلي) .

أوفل فروتسي شراب يحضر من مسحوق مصنوع من البيض والفواكه

في ضوء القمر

في ساعة

منتصف الليل

أذكر

يدك الباردة

أمسكت بها لحظة بين الغرباء

أمسكت بها لحظة بين الأشجار المثقلة بالمطر

في ساعة منتصف الليل

أذكر

عينيك ملونتين كمنظر في الحريف

تمشين في الدروب الموحلة

ترقبين الأغنام تأكل الورود الصفراء

تمشين في ساحات المدينة في مطر الشتاء

تقبّلين في الأروقة المعتمة

تمشين في شوارع الضواحي الخالية

تقولين ليلة سعيدة في الدروب المهجورة

في ساعة منتصف الليل

آندي ويليامز يغني لنا : « سندخر ترحيباً في التلال »

حين ألقاك في المحطة

والبيتلز يغنون : « يمكننا تحقيق الأمر

بالاشتراك مع جيمس آنسور على الهارمونيوم

وريتا هيوارث تغني في نادٍ ليلي : « Amade Mia »

سأرسل لك أساطيل حب
سفناً ضخمة من الأزهار
في ساعة منتصف الليل
يا فتاة الريف

حين نلتقي

في

ضوء القمر

ساعة

منتصف الليل

يا فتاة الريف

سأحضر لك

عينين

صفراوين

بيضاوين

ضوء

قمر

ساطع

أزهار

منتصف

الليل

في ساعة منتصف الليل . . .



زمن الحرب

١ - رهينة

في ذكرى ايرليك ماينهوف ٢١

أنتم يا فدائيو المدينة
اقتحمتوموني
ورششتم بالبنادق
القصاصد القديمة
المرابطة على الباب
من أجل مثل هذا الطارىء
مضيتم
بقلي
في سيارة الهروب
رغم
مطاردة يائسة
من الشرطة في العربات المصفحة
وطلبتم الفدية
سائلين
لا أقل من الانخراط التام .
تلك الليلة
قامت ثورة بيضاء
وتمثيل الحكم القديم



(٢١) ماينهوف : من قادة الفدائيين ضد الطبقة الحاكمة في ألمانيا الغربية .

المنابر الصدئة للحملة الانتخابية

ولا يعرف مصير

أولئك الذين أطيح بهم

ساسة شجعان جدد

يحكمون غرفة النوم

لا يزعجهم صوت

فرق الإعدام البعيدة

٣ - هذنة



بعد النهاية المريعة للحرب

يعود الجنود المتعبون

ويتشمس الجرحى <http://ArchiveBeta.Sakhril.com>

بثياب المستشفى الزرق على الشرفات

تراجع

يا حبيبي الصامد

ستوقظنا القذائف المضيفة

وجيوش غامضة

تعيد تجمعها في الليل

بين جسدنا المنفصلين

غداً

هجوم الفجر

الخنادق المלאى بالدم

سقطت في الشوارع
ونيران النصر
أشعلت فوق جميع التلال
والآن
في المعركة الأخيرة
تتابعون القتال وحدكم
من شبك المنزل المشتعل
وأنا
أسير باختياري
منذهل
أصغي إلى عواء
سيارات الشرطة المقتربة
أذوق
رائحة قنابل الغاز السامة
حين يقتحم رجال الميليشيا المقنعون
الغرفة
أتساءل
هل سأفتقدكم .

٢ - نظام حكم

الإعلانات الممزقة تحرق
والرياح تعوي في

العولم الملتحمة ثانية
في معركة ودية . .

قصيدة أيلولية

(في ذكرى ماو تسي تونغ)

الريح الشرقية هبت عنيفة في الليل
هادئة في الصباح
على أزهار الأقحوان الميتة في حدائق الضواحي
هل ستفتح الأزهار
المزروعة عند القبر
سنة أخرى ؟

وهل ستهب الريح الشرقية
بهذا العنف مرة ثانية ؟

تعليق

هذه القصائد السبعة المنتخبة من شعر ادريان هنري في الستينات
والسبعينات تبرز أهم خصائص هذا الشعر . هناك التزام سياسي يساري
واضح . فهنري لم ينسلخ عن الكادحين من طبقتهم ولم يتبرجز بل بقي على

اتصال مستمر بالمعذبين في الأرض ، سواء بسكنه في ليفربول ٨ ، حي
الفقراء ، أو باتصاله المباشر بالجمهور العريض الذي يسمع شعره . وهو يكتب
لهذا الجمهور صراحة . يقول : « إنني لا أرى أية غاية شخصية أو سياسية
تحقق في الكتابة لأقلية منتخبة »^(٢٢) .

يتميز شعره أيضاً بوفرة بالإشارات إلى الأحداث والشخصيات المعاصرة
وبالمواد والاقتراسات المأخوذة من أغاني البوب وغيرها . ويربط الشاعر هذه
الإشارات والمواد بتجربته الشخصية وبيئته الليفربولية المباشرة . وهو ، في
مزجه هذه الإشارات والاقتراسات ، متأثر بشكل ظاهر بأسلوب في فن الرسم
المعاصر يعرف بأسلوب الملصقات (Collage)^(٢٣) .

ويستخدم هنري أيضاً التناقض الظاهري والمبالغة بشكل كثيف . كما
نجد في قصائده قوائم من الأشياء والصور تذكرنا بأسلوب الشاعر الأمريكي
والثويتمان . ولكن الشاعر يري في هذا (كما يقول الناقد إدوارد لوسي -
سميث) تعبيراً عن صفة التكسر والتبعثر في التجربة الإنسانية المعاصرة^(٢٤) .

(٢٢) انظر جيمس فينسن (مخ) ، شعراء معاصرون ، ص ٦٧٤

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧٤ ، وانظر أيضاً ج . أ . كادن ، معجم المصطلحات

الأدبية ، طبعة منقحة (هارموندزورث ، دار نشر بنگوين ، ١٩٨٢ / ص ١٢٧

(٢٤) انظر جيمس فينسن (مخ) شعراء معاصرون ، ص ٦٧٤

• ترجمة: ميخائيل عيد

قصائد مقاومة

للشاعر البلغاري: فيسليين خانتشيف



ولد في مدينة ستارا زاغورا . درس الحقوق في جامعة صوفيا ثم راح يعب من مناهل الأدبين الفرنسي والروسي ويترجم عنها . قصائده صدى لأحداث عصره . وقد شارك في الحرب العالمية الثانية .

يعتبر أحد أفراد رعييل من الشعراء المرموقين الذين برزوا في الشعر البلغاري عشية الحرب العالمية الثانية منهم فيسليين اندرييف وفاليري بترف وألكسندر غيروف ، وبوغوميل راينوف ، وألكسندر فوتيمسكي ، وبوجيدار بوجيلوف ، ورادوي راين ، الذين أقالوا عثار الشعر البلغاري وأخرجوه من عزلته ومزاجيته الذهنية . ولم يتورع عدد منهم عن امتشاق السلاح للمشاركة في النضال .

أولى مجموعاته الشعرية كانت بعنوان (إسبانيا) وقد صدرت عام

١٩٣٨ . ثم تنالت أعماله الشعرية (شباب) و (قصائد في أغلفة الطلقات)
و (مدفن العظماء المضحك) و (وردة الرياح) و (غنائيات) كما صدرت له
عدة مسرحيات قصيرة تحت عنوان : (مسرحيات صغيرة من أجل قلوب
كبيرة) .

وقد بلغ أوج نضجه الفني في (وردة الرياح) و (غنائيات) .

* * *

خلود

ستعبر مقطورات الزمن

وستسقط في شعرنا أكوام الثلج

وستنطلق الأحداث ، صغيرها وكبيرها

في ركضها المجنون من حولنا

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

* * *

ستبقى الأرض أرضاً

وستبقى السماء أيضاً مليئة بالرياح

وستلاطم القرون باضطراب

مياها على ضفافها

* * *

أما نحن فسوف نكون تراباً صلباً أسود ،

أرضاً دون اسم ، غباراً دون تسمية ،

وستقولون ،

أنتم الذين ستأتون لتحلوا محلنا :
« تلقفهم الموت هم أيضاً ! » .

* * *

أواه ، لقد أخطأتم ! سنعيش نحن !
سيكون العصر جسداً !
لقد ناضلنا كثيراً من أجله
وقد قهرنا الموت ذاته .

* * *

ماذا ، لو اهترأت عظامنا ؟
ماذا ، لو غسل المطر دمانا !
ألم نكن أيها العصر ضيوفك
وقد بتيناك انهاراً فتبارك
وليلة فليلة .

* * *

لهذا سوف نبقى هنا ، لن تنحني فوقنا
صلبان من خشب مهترى
بل مصانع فيها يغني الفولاذ
ومدن تغتلي حياة

* * *

سيتحول الدم المراق إلى نفض
ونبضنا إلى هدير محرك جبار

صدقونا . سوف نعود ثانية
في عيونكم وأيديكم وعقلكم

* * *

قوتي

أنا يا وطني أتنفس بنفسك
وقوي بقوتك
كيف أتجاسر على كتابة قصيدة
لا أسمع فيها صوتك
كيف كنت سأحفر الخامات الثقيلة في المنجم
وأطرق درعاً تحب المطر المتجدد
لولا تكن قد سكبت في ضربتي الضعيفة
ضربتك وقوتك ؟

* * *

تعطيني سلطانك وحكمتك
أنا الإنسان العادي
فأنمو
أصير ضخماً
وأصلب من كل ذراك
وأنمو
أسمق عالياً
يفعم كاهلاي قوة

وأنمو
لأنك موجود ،
ولاني فيك
وأنت في
ولكن . . .
إذا أنزلت في القتال يداً
أمام طوق الأعداء
وقلت كلمات سيئة
فلتسقطني يا وطني
بالقوة التي بها رفعتني



الليل في الخارج . أما هنا فسكون
الأطفال ينامون بهدوء
ولا تنام
عين جهازني الخضراء

* * *

تطلق شارات المورس ، يجاز الجاز
على إحدى الموجات ،
وفجأة يعلو صوت أميركي

تلك أنت أيتها الحرب !؟

* * *

تلك أنت . . تزحفين حولي
في صوتك رائحة الروم
تزحف من قارتك
إلى منزلي المسالم

* * *

تلك أنت . . بشعيرة تسديد ساخنة

ما يزال يلفها الدخان

ونحن نقف تجاهك مستغربين



ARCHIVE

<http://achivaberg.sakhril.com>

* * *

ماذا ؟ أتريدن ، أنتحرقين

كي نذهب إلى هناك

إلى حيث بناتي

غافيات في السرير

وأن نشب صائحين

في البيت بغتة

وكأنها للصيد ؟

وأن تغرزي في السرير الدافئ

مدينة كاوبوي !؟؟

* * *

لا تخاطري ! لا تفكري
بالخطو هنا أينها الحرب !
فعلى سرير بناتي النائبات
يسهر وطني

* * *

إنه يسهر قربي كالجندي
صليلاً لا يُغلب
تجاه الأمواج المندفعة
وهي تحمل الموت



وأننا في الظلام ، كما من خندي
أهمس غاضباً إلى الوراء !
تجاه عين جهاز الخضراء . .

* * *

قصائد في أغلفة الطلقات

في أغلفة الطلقات قرب الأجندة المعبأة
في المسير والصدمات العنيفة
نظمتك قصائد ، يا كلماتي الفجة
المولودة في القتال

* * *

رقتي العسكرية وكراھيتي
كرستها لك واحدة فواحدة
وما لم أستطع قوله بالبارودة
أحاول قوله في قصيدي ..

* * *

- ١ -

المعذرة يا ابنتي الصغيرة

المعذرة يا امرأتي !

فوسط الغبش يسير القطار متمهلاً

متجهاً غرباً إلى الحرب

ARCHIVE

<http://ArchivebeforeSakhril.com>

* * *

تلمع على المعر البنادق

ويترجع حديث خشن

أواه ، إن عيون الجنود تدمع

وذلك من الدخان دون ريب !

- ٢ -

تصفر في الظلام صليات الألمان

ثم يسود الهدوء فجأة

- إلى الأمام سر - وتسير الفصيلة

تحت مطر ايلول الجليدي

* * *

الألمان هناك في القرى المشتعلة

ووراءنا وطننا الأم

إنه الآن في الظلام مع الجنود

يسير صامتاً إلى الحرب

* * *



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

اعزف يا إيفان ، تلك التي لنا !

اعزف يا إيفان !

لقد خفت أجنحة الطلقات

والنار تشتعل

* * *

وعزف إيفان في الظلام

الجنود صامتون

لم يفتنوا لبزوغ الفجر

وإن الدرب تنتظرهم ..

* * *

في سهل ستراتسين الحجري
في السكون الأزرق الشاهق
يستلقي جندي بخوذة رمادية
يستلقي ديدبان صامت

* * *

ترتعث النجوم فوقه سراعاً
يندبه الندى في الصباح
أما السحب البيض
فتحل شعره المدمى



شال حريري أحمر
وجدته عند جفنة قرب الطريق
وتذكرت - فأنت أيضاً
لديك شال كهذا ، هناك عندنا

* * *

هل ستلوميني
لأنني أخذت شالاً غريباً في الحرب ؟
لقد وضعت الشال بحرص

تحت الحفوة المغبرة

- ٦ -

سبعة أشخاص على تلعة بنية
سته أحياء ، السابع قتيل
حفر الستة قبره
وطُمر السابع في الأرض

* * *

سته رفاق مع السابع - الميت
جُنَزَ دون كاهن ودون مخلص
بدلاً من الصليب - باردة على القبر
فالميت هو أيضاً معهم في المحرس

- ٧ -

تحت الشجرة الوحيدة
بفروعها الناجية
ارتعش الأسير المخفور بزداً
الأسير الذي دون نطاق

* * *

انتزع الصليب المعقوف

من السترة بيده
أواه لو استطاع
إخفاء الإثم هكذا !

- ٨ -

(نايدن) ينحني فوق الخندق
بين أصابعه السود - ساق عشبة
نظر نحوي بسرور
وهز رأسه حالماً . . .



« لقد أنهموا الحصاد دون ريب »
قال نايدن ثم عاد إلى الصمت
ومن جديد وجهنا إلى البعيد
أنظارنا الحارة ..

- ٩ -

في ستراتين تحت الراية الصخرية
زحف المدووطوقنا
ظل يدفعنا بالسلاح يومين
وقد أبقانا عطاشاً جياً ،
كان يخادعنا ويغوينا

كي نلوح بأيدينا بأي ثمن . .

* * *

ولكننا صمتنا لائذين بالأرض
دون طلقات في الهواء الحار
ولكننا صمتنا ، وقد أسندنا على التراب
أفواهنا الصابرة
ولقد صمت رفاقنا الجرحى
صمتوا وقد أمضهم ألم جراحهم البليغة ،
كي لا يسمع العدو منهم
أنيناً أو كلمة خوف . .



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

واستلقينا - موتى وأحياء -
ملفوحين بالبارود ، صامتين
دون حراك على التلعة العارية
ولم يصمد العدو أمامنا
لم يصمد ، بل فر مدعوراً
من صوتك يا صمتنا !

* * *

- ١٠ -

لقد آويتنا كأخت
يا غابة في مقدمة الجبهة

حميتنا من الحر ومنحتنا النوم
والأريج وتغريد الطيور

* * *

أما الآن فأنت غير موجودة
لقد حرقك العدو صباح اليوم
وفي الرمباد
تستلقي الطيور والأوراق صرعى

* * *

لا شجرة حولنا ولا شجيرة
كل شيء أحمر فاقع
وفوجنا يسير متجهها
على الأعشاب السوداء

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

* * *

المعذرة أيتها الأخت الغابة
أيتها الملاذ الجيد !
إننا نسير عبر دخانك المتموج
كي ننتقم لك

- ١١ -

يا شقراء الشعر ، يا شفاء الأنف
يا زرقاء العينين يا ابنتي ،

أنت نائمة ، لا تعرفين ما هي الصليبات
وكلمة (هورا) البغيضة

* * *

تنامين بعيداً يا حلوتي !
تنامين في سكينه ، مهددة !
وأنا أسير إلى القتال عبر الغابة
كي أحمي طمانيتك ..

* * *



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في حلقة من حوائث بيع المشروبات
شربنا نبیذاً جيداً

وعقدنا حول النار
دبكتنا

* * *

أرسلت النار الشرر على الأرض
ورقصت في الليل
وضحت الأرض كلها
تحت أقدامنا

* * *

ترنحت الأرض الخرساء
تحت جزماتنا
وكان العدو يستمع إلينا ويستمع
ومن ثم - خرس

* * *

إيه ، فليستمع ، وليختم
متوفراً حتى الصباح !
فهذه الرقصات المرحّة
نذير شؤم له



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Scribd.com>

لقد مضت معنا نحو الجبهة
فاجتازت سهولاً وذراعي
كي تلحق بابنها في مكان ما
بين الرمال الصفرة قرب بتشينا

* * *

كانت صامتة في البداية
ثم قاربتنا ذاهلة
ترقع لنا ، تغطي بنا
وتغسل لنا وترجرنا بصوت أمومي

* * *

كيف استطاعت إخفاء عذابها ؟
كيف لم تبك ولم تصبح حقوداً ؟
لم تتكلم ، ولكننا رأينا
إنها قد شابت أمام أنظارنا على الدرب

• • •

يتذكرها المقاتلون والقادة
في الليالي المظلمة وفي الاشتباكات القاسية
لقد قتل ابنها ، وأنت لتبحث عنه
فوجدت الكثيرين من الأبناء



- ١٤ -

ARCHIVE

لا ، لا أستطيع النوم ، سأخرج إلى تحت السماء ،
حيث تضيء النجوم وتنفخ الريح المضطربة في بوقها ،
أريد أن أكون هناك معك ، أن أقول لك
ما لم أستطع أو ما لم اتجاسر ...

• • •

لم الأطفك ، ولم أغازلك يا حبيبي
فرقنا الواجب ، فلا تبكي ولا تلومي !
فأنا ماض إلى القتال مع الفجر
كي يكون ثمة حب وأحلام في المستقبل

• • •

إذا سقطت صريعاً بين التلاع ، تحت النجوم الباردة ،
فتذكريني بالحسنى ، ولكن لا تجهشي على قبري ،
استقبلي الفرح الذي أحرز بعدابي ،
وأحبي بدلاً مني ، واحلمي !

* * *

لن أغضب ، بل سأكون سعيداً مطمئناً
فلم أذهب إلى الحرب من أجل الألم ولا من أجل الدموع .
لقد طلع الفجر عليّ . وقد انخرط الرفاق في القتال .
طابت ليلتك يا زوجتي العزيزة !



ARCHIVE

شكراً لك يا أماءه <http://Archivebeta.Sakhril.com>

فأنت لم تنسي
حين ولدتني
أن تتركبي مكاناً للكراهية
في صدري

* * *

كيف سأحافظ على حبي ، يا أماءه
قولي ، بأي قلب ،
إذا أمسكت يدي أخمص البارودة
دون ضغينة في القتال ؟

- ١٦ -

طلع الصباح . خمد إطلاق النار
توقفت الدبابة في ساحة مقفلة
أنزل السائق الشاب الخوذة
وعب الهواء العليل ملء رثتيه

• • •

نسي الموت والقتال
وفوق الفتحة التي ما زالت ساخنة
بدأ كتابة رسالة :
« حبيبي ، سأعود ، لا تحزني عليّ . . . » .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

لقد كتب . . ولم يرتعش فوق الأوراق
القلم المضغوط بين الأصابع
صدقيه أيتها البعيدة المجهولة
سيعود ، سيعود حياً !

- ١٧ -

حان الوقت
انهض ، أيها الجندي ، واستعد !
يقف القائد صارماً وهادئاً

نظر الجميع إليه . . . وخلال لحظة
تجمعت قوى للمخلود

* * *

ها هو صاروخ يلتصق . وانتصب القائد
في الظلام طويلاً مضاء
أشار إلى البعيد وأمر : « ورائي ! » .
واندفعنا هاجمين

* * *

وعبر الأرض البور ، بشفاء مسودة
ملفوحين بالهواء البارودي ،
مضينا والطلقات جاهزة رهن شعيرات التسديد
مضينا والضعفة في قلوبنا

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- ١٨ -

كم من الوقت قد مضى على الدرب ؟
كم من الأيام مشينا هكذا ؟
إيه ، أنت تثقلت أيتها البارودة
في اليد الواهنة !

* * *

مسير ، مسير . . . المطر يسوطنا
على الوجوه عرق أسود

وفجاءة - يلوح أمامنا كوخ
وتتوقف فصيلة المشاة

* * *

توقفت حدقت في الظلام
دخان ، وخلل الزجاج - ضوء
صرّت بوابة ، وقفزت
امرأة ضئيلة من نسائنا

* * *

قبلت جباهنا
وأخذت تروح وتحي
وهي تهمس ، مع أننا لا نعرفها :
يا أبنائي الأعزاء <http://Archivebeta.Sakur>

* * *

لا ، لا تثقلنا الطلقات
ولا الدرب الذي لا ينتهي عبر الوحل
فأنت قمين ، من أجل هذه الكلمات
بأن تسيّر حتى آخر الكون

- ١٩ -

في اخفل الذي أنت الحرب إليه
قبل لحظة للحرثة

يستلقي الجندي القتيل
وكانه يتكلم مع أرضه

* * *

إنه ميت ، ولكن التراب دافئ
ينسكب فيه الدم العسكري
إنه ميت ، ولكنه يحرس ميتاً
الحقل الذي أنقذ من الأعداء

- ٢٠ -



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sa>

أيتها الحوراء اللواتي تطالعننا
وتنحين أمامنا
فوق من ، فوق من ،
تنوح أغصانكن غصناً غصناً

* * *

تحت الأشجار الحزاني
سبعة أجساد ممددة
فالسرية الأرمنية السوداء
كانت هنا البارحة

* * *

لا أحد هنا ، القنن جرداء
الأفاريز في الدخان . . والخواء ،
١٢٩

وعلى الحورات الوحيدات
تحط أسراب تنعب بقبح

* * *

والحورات في السماء
تتأرجحن وتشدن بإصرار
إلى هناك ، هناك
حيث اختبأ العدو صباحاً

- ٢١ -

نسيت الملاطفات أيدينا الحشنة
صار القلب حجراً
ولكن ، لا بأس ،
فمن أجل أن نحب بهدوء
بعد القتال
نسير صارمين إلى الحرب

- ٢٢ -

تنحني السماء فوقنا
مثل خيمة عسكرية
الريح تصفر والأجفان تركض
جفنة جفنة وراء الفصيلة

* * *

إلى القتال تمضي فصيلة المشاة

تخطو بصلابة
فمن منا سوف يعود
إليك أيتها الحياة . . .

* * *

كفى ، لا تترفق يا قلب الجندي
في الصباح الرمادي !
فالقلب الرعديد
يكون الهدف الأول في القتال

* * *

أحدهم يغني . .
تطير الأغنية
حانقة غاضبة ،
تمضي بعيداً
فوق التلعة
تحملها الريح المتوحشة

- ٢٣ -

في كل مكان أرض مقفرة
لا صليات نار ولا صوت
ولكنهم هنا ، من هنا سيمرون
على هذا الدرب . . قرب هذه الجفنة

* * *

تدب سراياهم الخضر

أتلمس الزناد البارد
لست خائفاً ، لست وحيداً
ثمة رفيق وبارودة يترصدان قربي

* * *

يستلقي الرفيق . لا يتكلم
يصيحح السمع إلى الجهات الأربع
ستعمل البارودة دون عائق
ولكنه لن يحل محلي

- ٢٤ -



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بالتساوي

تقاسمنا التبغ والفراش

وبالتساوي -

البارود والأحلام

إطلاق بارودتك

قرب بارودتي

وأنت تسير قربي

* * *

يثقلني ويثقلك الجناد
بالتساوي ، أيها الرفيق المحبوب
ولي ولك الحق
في أن نتقاسم معاً
النصر بالتساوي . . .

قصائد لبابلونيرودا

• ترجمة : رفعت عطفة

سلاماً نقول كل يوم . . .



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhi.org>

سلاماً ، نقول كل يوم ،

لكل واحد ،

إنها بطاقة الزيارة

للطيبة المزيفة والحقيقية

إنها ناقوس تعارفنا :

نحن هنا ، سلام !

يسمع تماماً ، نحن موجودون ،

سلام ، سلام ، سلام ،

على هذا وذاك ،

على الذي ،

وعلى السكين ، على السم

والشرير . سلام ، اعترفوا بي ،

نحن متساوون ولا نتحاب ،

نتحاب ونحن غير متكافئين ،

كل واحد ومعه ملعقة ،

نحييه الخاص ،

مسرور بأنه كائن أو غير كائن :

يجب أن يتمتع المرء بأيد كثيرة

شفاه كثيرة كي يتسم ،

سلامٌ

لم يبق وقت

سلامٌ

عدم الإحاطة بشيء

سلامٌ

تكريسنا أنفسنا لأنفسنا

هذا إذا بقي من أنفسنا شيء ،

من أنفسنا بالذات ،

سلام !



كم من الساعات . .

كم من الساعات سقطت اليوم

في البئر ، في الشبكة ، في الزمن :

إنها بطيئة ، لكنها لم تهدأ ،

ما تزال تسقط ، متحدة

في البداية مثل الأسماك ،

ثم مثل ضربات الحجارة أو القناني ،

هناك في الأسفل تتفاهم الساعات

مع الأيام ،
مع الشهور ،
مع ذكريات ضبابية ،
ليالٍ مهجورة
ثياب ، نساء ، قطارات ومقاطعات ،
يتراكم الزمن
وكل ساعة
تذوب في صمت ،
تتمزق وتسقط
في حمض كل البقايا ،
في الماء الأسود
لليلة المعكوسة ...



عرفت المكسيكي تيهواتين
منذ عدة قرون ، في خالاتنا
وبما أنني كنت ألقاه في كل مرة
في كولومبيا ، في إيكيمي ، في أريكييا ،
بدأت أشك بوجوده ،
بدت لي قبعته غريبة ،
عندما كان ذلك الرجل ، الفخاري الصنعة ،
يعيش من صلصال المكسيك ،
ثم أصبح معمارياً ، قهرماناً

دكان حدائد في فنزويلا
عامل منجم ومُحضراً في غواتيمالا
فكرت أنا ، بالعمر نفسه
ثلاثمئة سنة فقط ،
بالصنعة نفسها ، ساهياً
في دكان نواقيسي
بطرق الحجارة أو المعادن دائماً ،
ليسمع أحد نواقيسي
ويعرف صوتي ، صوتي الوحيد
كيف كان هذا الرجل
يبدل تمارينه ،



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakina.com>

منذ سنوات مائت
في أنهار لم توجد .
عندئذ فهمت أنه أنا ،
أنا كنا باقي حياً آخر
بين آخرين هنا وهناك ،
آخرون من أنساب مماثلة مدفونة
بأيديهم التي وسخها الرمل
يولدون دائماً جاهزين
وفي أي مكان لعمل لا ينتهي

لنر ، ناديت قبيلتي . .

لنر ، ناديت قبيلتي وقلت : لنر
من نحن ، ماذا نفعل ، ماذا نفكر
أكثرهم ، أكثرنا شحوباً ،
أجابني بعيون أخرى
بظلم آخر ، برايته ،
كان ذلك سراق العدو
ذلك الرجل ربما كان على حق
بقتل حقيقي ، هكذا حدث معي
ومع والدي ، وهكذا يحدث
لكنني تعذبت كما لو أنهم عضوني



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

كل يوم ماتيلد

اليوم لك : طويلة أنت
مثل جسد تشيلي ، ورقيقة
مثل زهرة يانسون ،
وفي كل غصن تحبّين شاهداً
على ربيعائنا التي لا تمحي ،
أي يوم اليوم ؟ أنت اليوم
وغداً البارحة ، لم يحدث ،
لم يفلت يوم واحد من يديك :

تَحَبَّيْنِ الشَّمْسَ ، الأَرْضَ ، البَنْسَجَ
فِي ظِلِّكَ الصَّغِيرِ حِينَ تَنَامِينَ
وَهَكَذَا تَهْدِينِنِي الْحَيَاةَ
كُلَّ صَبَاحٍ ..

سَأَقْصُّ عَلَيْكُمْ ..

سَأَقْصُّ عَلَيْكُمْ أَنَّنِي عَشْتُ فِي الْمَدِينَةِ
فِي شَارِعٍ يَحْمِلُ اسْمَ نَقِيبٍ ،
وَفِي هَذَا الشَّارِعِ حَشْدٌ

دُكَاكِينَ أَحْذِيَّةٍ ، وَمَبِيعَ الْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ ،
مُخَازِنَ تَطْفِئِ الْيَاقُوتِ
لَمْ يَكُنْ مَحْكَأً لِلذَّهَابِ أَوْ الْمَجِيِّءِ

كَانَ هُنَاكَ أَنَاسٌ كَثِيرُونَ
يَأْكُلُونَ ، أَوْ يَبْصُقُونَ أَوْ يَتَنَفَّسُونَ ،

يَشْتَرُونَ أَوْ يَبِيعُونَ ثِيَاباً
كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدُو لِي بِرَاقاً
كُلُّ شَيْءٍ كَانَ مُلْتَهَباً
وَكُلُّ شَيْءٍ كَانَ رَنَاناً

بِمَا يَكْفِي كَيْ يَعْصِمَ
مِنْذُ زَمَنٍ ، مِنْذُ زَمَنٍ لَمْ أَسْمَعْ
شَيْئاً عَنْ هَذَا الشَّارِعِ

بَذَلْتُ أَسْلُوبِي ، أَعِيشَ بَيْنَ الْحِجَارَةِ

وحركة الماء
ربما مات ذلك الشارع
ميتات طبيعية

أعود من سفر

أعود بسفرة واحدة إلى النقطة نفسها ،
لماذا ؟

لماذا لا أعود إلى حيث عشت

إلى شوارع بلاد ، وقارات ، جزر

حيث كان لي وكنت ؟

لماذا سيكون هذا المكان الحدود

التي اختارتي ، ماذا في هذا الخطار

غير سوط الهواء العمودي

فوق وجهي ، وبعض الأزهار السوداء

التي يعصّها ويمزّقها الشتاء الطويل ؟

أي ، إنهم يشيرون إليّ : هذا

هو الخمول ، السيد الصديء

لم يتحرك من هنا

من هذا الخطار الثابت

حتى تصلبت عيناه

ونمت في نظرتة نبتة متسلقة

يعود إلى (أنا) . . .

يعود إلى « أنا » كما إلى بيت عتيق
بمسامير وشقوق ، وهكذا
وقد تعب الواحد نفسه من الواحد نفسه
كما يتعب من بذلة مليئة بالثقوب ،
فإنه يحاول أن يمشي عارياً لأنها تمطر ،
يريد الرجل أن يبتل في ماء نقي ،
في ريع أولية ، ولا يحقق
إلا العودة إلى بثر ذاته ،
إلى همه المصغر ،
إلى ما إذا وجد ، عرف كيف يعبر ،
أويدفع ، يتوجب عليه أويكتشف
وكانني « أنا » مهم جداً
وعلي أن أقبل أولاً أقبل
الأرض باسمها النباتي
في مسرحها ذي الجدران السوداء ،
منذ زمن . . .

منذ زمن اكتشفت في سفر نهر
لم يكد يكون ذلك النهر الوليد
طفلاً ، كلباً ، عصفوراً
كان يهمس ويشن
بين حجارة

الجبال الحديدية :
كان يتضرع الوجود
في وحشة من سماء وتلج ،
هناك بعيداً ، في الأعلى
شعرت بالتعب
مثل جواد عجوز
إلى جانب المخلوق الطبيعي
الذي بدأ يجري
يقفز وينمو

يقف بصوت واضح ،
يعرف الأرض ،
الحجارة ، المرور ،
يسير الليل والنهار ،
يتحول وعداً ،

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

حتى يصبح كائناً دوارياً
حتى يصل إلى السكينة
حتى يصبح عريضاً ويهدى الماء
حتى يصبح بطريكاً صالحاً للإبحار
هذا النهر الصغير
الصغير والمتناقل مثل سمكة معدنية
هنا ، تخلف حراشف عند مرورها
قطرات من فضة معتدى عليها
نهرأ
كان يبكي عند ولادته

وراح ينمو
أمام عيني
هناك في جبال وطني
رأيت ، لمست وسمعت
مرة ومنذ زمن
ما كان يولد :
نبض ، صوت بين الحجارة
وكان الذي يولد

بدرو هو الـ « عندما » . .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.alibab.com>

بدرو هو الـ « عندما » والـ « كيف » ،
وكلارا ريبا الـ « دون شك » ،

روبرتو ، الـ « مع ذلك » :

جميعهم يسرون بحروف جرّ ،

بظروف ، بأسماء

يتقدمون في المخازن

الهيئات ، الشوارع

وكل رجل يزني بوزنه

بكلمته الرابطة

مثل قبعة قديمة :

إلى أين يذهبون ؟

اتساءل

إلى أين نذهب

بالبضائع

الحذرة

تلف أنفسنا بالكلمات

نرتدي الشباك ؟

من خلالنا تسقط الحقيقة

الحل المنتظر مثل المطر :

الشوارع تغدو وتروح

ملينة بالتفاصيل :

أصبح باستطاعتنا أن نعلق الحُطْب الساقطة

على الطريق ، كما نعلق سجاد الصلاة ، الشرفة

على الجدران

دون أن يبقى لأحد شيء

ذهب أو سكر ، كائنات حقيقية

السعادة ،

كل ذلك لا يحكى ،

لا يلمس

لا يوجد ، كما يبدو ، شيء واضح

حجارة ، خشب قاس ،

قاعدة أو ارتقاء للمادة .

للمادة السعيدة

لا شيء ، لا يوجد شيء إلا كائنات بلا أهداف

كلمات دون مصير

لا تذهب أبعد من « أنت » و « أنا »

ولا أقرب من المكتب :

نحن مشغولون جداً

تتحدث بالهاتف

وبسرعة

لنُبْلَغ أن الفرع ممنوع

حيوان صغير . .

حيوان صغير

خنزير ، عصفور ، أو كلب

بائس

مزبثر بين الريش أو الشعر

سمعته طوال الليل

محموماً وهو ين

كانت ليلة شاسعة

وكان البحر في ايزلا نغرا

يهز كل رعوذه

دكان حديده

براميل ملح ، بلوره المكسور

على الصخرة الثابتة

كان الصمت مفتوحاً وعدوانياً

بعد كل ارتطام أو شلال :

كان حلمي يخيّط نفسه

ينسج الليل المنقطع
وحينئذ كان الكائن الأشعر
يعاني الاختناق أو الحرارة ،
صلاء ألم صغير ، أنين
ضد ليل المحيط الهائل ،
ضد أرض الصمت السوداء ،
حيوان جريح
صغير
لا يكاد يكون هامساً
تحت فراغ الليل . . .



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ليس هناك الكثير مما يُروى
للغد
عندما أهبط إلى
صباح الخير
يكون ضرورياً لي
خبز هذه الحكايات
والغناءات
قبل الفجر ، بعد الستار
المفتوح على شمس البرد أيضاً
تكون فعالية يوم مضطرب

عليّ أن أقول : أنا هنا ،
لم يحدث هذا لي وهذا يحدث
في هذه الأثناء تتأرجح طحالب
المحيط متهبّة
للموجة
لكل شيء حقّه
وفوق كل حق حركة
مثل حركة طائر بحري
يقلع من حجر أو ماء ، أو طحلب طاف
أنا يجب أن أنادي بيديّ :
ليأت أيّ كان
هوذا هنا ما أملك ، ما أنا مدين به

اسمعوا الحساب ، الحكاية والصوت
هكذا وفي كل صباح من حياتي
أحضر من حلمي حلماً آخر

تَطَر . . .

تَطَر
فوق الرمل ، فوق السطح
موضوع
المطر :
لاماتُ المطر البطيء ، الطويلة

تسقط فوق صفحات
حبي الأزلي ،
ملح كل يوم :
عد ، أيها المطر ، إلى عشك السابق ،
ارجع بإبرك إلى الماضي :
فالיום أريد الفضاء أبيض
وزمن الورق لغصن
ورد أخضر ، لأوراد مذهبة
شيئاً من الربيع المطلق
الذي انتظرتة اليوم ، والسماء مفتوحة
وانتظرة الورق
عندما عاد المطر ليقرع
النافذة ،
ثم ليرقص بهياج مفرط
فوق قلبي وفوق السطح
بطالب بمكانه
طالباً مني كأساً
يملؤها مرة أخرى
بالإبر ، بالوقت الشفاف
بالدموع

في أوج شهر حزيران . . .

في أوج شهر حزيران

حدثت لي امرأة
أوبالأحرى برتقالة
المشهد الشامل مختلط :
قرعوا الباب !
كانت ومضة
سوط نور
سلحفاة فوق بنفسجية
رأيتها
بيطء التلسكوب
وكأنها كانت أو سكنت
ثوب النجم هذا ،
ويخطأ من الفلكي
دخلت بيتي .



هذا الناقوس محطّم

هذا الناقوس محطّم
ومع ذلك يريد أن يغني :
المعدن الآن أخضر
للناقوس لون الغابة
لون ماء المستنقعات في الغابة ،
لون النهار في الأوراق

البرونز محطم وأخضر
الناقوس
دفنته النباتات المتسلقة
وهو نائم على وجهه
وانتقل من لون البرونز الذهبي القاسي
إلى لون الضفدع :
وأبدي الماء
رطوبة الشاطئ
هي التي منحت المعدن خضرة
والناقوس حناناً
هذا الناقوس المحطم
المجرجر في الجرح الوعر
لحديقتي الوحشية ،
الناقوس الأخضر ، الجريح
يغرق ندوبه في العشب :
لا ينادي غيره
ولا يحتشد إلى جانب كأسه الأخضر
إلا فراشة تحفق

من مجموعة (البحر والنواقيس) وهو من الدواوين الأخيرة التي طبعت بعد وفاة الشاعر .

قصائد إيطالية لشاعر

فلسطيني

ترجمة: د. عيسى الناعوري

أبكي أرضي Piango la mia terra

مجموعة شعرية تضم ثلاثاً وخمسين قصيدة ، كتبها بالإيطالية لاجئ فلسطيني شاعريقيم في مدينة (بافيا) في الشمال الإيطالي ، غير بعيد عن ميلانو ، وكتب في تقديمها وزير خارجية إيطاليا السيد جوليو أندريوتي كلمة قصيرة ، جاء فيها أن في هذه القصائد تعبيراً عن إحساس عميق .

هذا اللاحق الفلسطيني الشاعر هو الطبيب الجراح الدكتور خليل مصطفى . وهو يعرف بنفسه في القصيدة الأخيرة من مجموعته الشعرية ، وعنوانها (سيرة حياة عادية) ، ويقول فيها إنه ولد عام ١٩٥١ ؛ وقد ولد لأمه أحد عشر ابناً : ثلاثة منهم ماتوا أطفالاً ، وأربعة ولدوا قبل أوانهم ، كان هو رابعهم . والأحياء منهم خمس إناث وثلاثة ذكور . وفي سن الخامسة وخمسة أشهر من عمره دخل المدرسة ، وكان دائماً بين الأوائل . وعندما أنهى الدراسة الثانوية نال منحة مختلفة لدراسة العربية ، أو الإنكليزية ، أو العلوم السياسية ، ولكنه رفضها جميعاً لأنه شاء أن يكون طبيباً .

وذهب إلى يوغوسلافيا ، ولكنه بعد أسبوعين قبل له أن عليه أن يدرس اللاتينية ، فقرر الانتقال إلى إيطاليا حيث يوجد له ابن عم . وبدلاً من الدراسة ، أضعاف السنوات الأولى في التجول في إيطاليا وفي بلدان غربية أخرى .

ويقول الدكتور خليل بعدئذ في القصيدة عنها :

« وشاركتُ في مناظرات ، وأدارت رأسي بعض النساء . وسربتُ المَرَمَن
الحياة ، وَجُعْتُ أحياناً ، غير أنني عدت إلى الدراسة . وفي عام ١٩٧٩
تخرّجت وولدت لي ابنة ، وفي عام ١٩٨٣ تَخَصَّصْتُ . والآن لا أدري ماذا
أفعل . . . » .

ويختتم القصيدة بقوله :

« فإذا لم أمت قريباً بحادث ما
سأهاجر إلى القمر عام ١٩٩٧
عندما تكبر ساره
وتصبح فتاة »

هذه سيرة حياة زوجة يكتتبها الدكتور خليل مصطفى شعراً في مغتربه

<http://Archivebeta.Sakhr.it.com>

الإيطالي :

وفي قصيدة له بعنوان (حياة المخيم) يقول الشاعر اللاجئ :

« أتذكر (الفَوَّار) :
إنه مخيم تملأه خيام
جميلة وبشعة ،
وبيوت طينية
وأَتَذَكَّرُ ما كان مكتوباً
على جباهنا :
التعاسة والظلم
وسوء التغذية »

ومن هنا نعرف أنه ولد هناك ، في مخيم الفوار ، وفيه عاش طفولته .

* * *

ولست أطيل على القراء في التعريف بالشاعر ، بل سأترك لشعره الذي أترجمه في ما يلي أن يعرّف به . ولكنني أودّ أن أقول إنّ الشاعر يخاطب بشعره الغربيين ، وهو يريد أن يدخّل ، ويدخل معه قضية شعبه ، إلى قلوب هؤلاء الغربيين . على أمل أن يتعاطفوا مع الشعر الإنساني الرقيق ، الذي يخاطب القلوب ويحدّثها عن مآسي الشعوب .

وأذكر هنا أن شعر المقاومة داخل الأرض المحتلة قد دخل إلى نفوس الغربيين ، وفعل فيها بكثير من العمق . والناس يتقبلون الشعر الإنساني أكثر مما يتقبلون العنف ، ويتفاعلون مع المشاعر أكثر مما يتعاطفون مع المشاكل .

خليل مصطفى خديم القضية الفلسطينية في مجموعته الشعرية (أبكي أرضي) خدمة مخلصه تستحق التقدير ، وأنا لهذا السبب وحده ، ودون أن تكون لي بخليل صلة مباشرة ، أترجم من مجموعته القصائد التالية ، مع تحية مخلصه أبعث بها إليه . ولكنني قبل الترجمة سأكلّم قليلاً عن المقدمة التي يخاطب بها طفلته قبل أن تولد ، بل أكاد أترجمها ترجمة حرفية ، ألا أقلها .

يقول خليل مناجياً المولود المنتظر ، دون أن يعرف أنه سيكون ذكراً أم أنثى :

« لا أستطيع أن أخفي عنك شعوري بمجيئك إلى هذه الدنيا . منذ شهور وأنا أبحث لك عن اسم ، لأن المخلوقات البشرية لا بدّ لها من أسماء تميّز بينها . ما زال بينك وبين الولادة شهر ، أرجو أن أتوصّل خلاله إلى هذا الاسم ، اسم عربي وآخر غربي ، أو اسم يكون مقبولاً في الشرق والغرب .

لا بد من أن أحببك ، وأقدم لك ما تحتاج ، بما لا تحتاج إليه أحياناً . بل إنك بولادتك هنا في إيطاليا - على خلاف أبك - ستكون لك مزايا كثيرة إضافية . ولا أدري إن كنت سأقدم لك الأزهار عن ولدك ، ولكنني لأرود أن أسبيء إليك ، وأجعلك تتحمل عُقد النقص التي في . . . » .

إنك تولد في أوروبا من أب تعس ، لا ذنب له إلا أنه فلسطيني . ومن المؤسف أن هذا سيتقل عليك مدى الحياة .

حالي النفسية ؟ لا أدري أسعيا أنا أم قلبي ، لأن علي أن أواجه بصدق ومسؤولية إجابات مهمة ، وهذا ما يثيرني ، يخيفني في وقت واحد : فأنا شاب ، وأخشى أن أضطر إلى العدول عن بعض المواقف ، وتنظيم حياتي غير المنتظمة .

أقنني أن لا تتحمل أحياء غير صافية في نشأتك السلمية المرجوة . وفي ما عدا ذلك ليس في بسعي إلا أن أقول لك : والله لو أعرع عربي لم يكن له أبناء ، وهو :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هذا جنسك أبسي علي
ومما جشيت علي أحمد

أخني أن لا تعاني ما عانيت ، وإن أمكن من جعلك أقل تعاسة مما كنت .

هذه الكلمة النثرية قادمة من مصطفي لقصائد مجموعته (أبكي أرضي) ، وفيها تنتهي الشعور بالتعاسة ، وفيها كذلك الأمل في أن تكون حياة مولوده المتظر أفضل مما كانت حياته . ولقد جاء المولود المنتظر ، وكان طفلة

دعاها أبواها (ساره) ، وإلى (ساره) هذه يكتب خليل قصيدته الأولى في
المجموعة .

ونأتي الآن إلى بعض قصائد خليل مصطفى ، أقدمها إلى القراء
فلذات حارة من قلب شاعر لاجئ ، يعيش في الغربة بروح الوطن الذي
لا يعرفه : فلسطين .

* * *

١ - سارة SARAH



(إلى طفلة الأولى) :

أرى فيك

استمراري

إنك بريئة

وصغيرة

وانت الحب الكبير لأبيك

أحبك

فتجيبيني :

أعرف هذا ، أعرفه

أهاتفك ، فتتكلمين قليلاً

وحين أعود

تنظاهرين بأنك لا تعرفيني

حين تقبليني

تَقْبَلْنِي السَّمَوَات ،
وَحِينَ أَحْتَضِنُكَ
أَحْتَضِنُ الْعَالَم ،
وَحِينَ تَنَادِينِي (بَابَا)
أَحْسَ بَأْنِي كَبِير
لَقَدْ مَلَأْتَ عَلَيَّ كُلَّ فَرَاغِي
وَحِينَ أَبْتَعد عَنْكَ
أُظِلُّ فِي لَهْفَةٍ إِلَى أَنْ أَعُودَ لَأَرَاكَ
إِنَّكَ طِفْلةٌ حَلُوةٌ جَدًّا
وَمَعَا فَاةٌ ، وَخَجَلَةٌ ،
وَلَكِنْ هَذَا لَا يَهْمُ ،
فَأَنْتَ سُلْطَانَةٌ
وَقَدْ وَهَيْتَنِي سَبَبًا لَوْجُودِي
وَأَنْسَيْتَنِي كُلَّ هُمُومِي
شُكْرًا يَا سَارَه
شُكْرًا لِلْقُوَّةِ الَّتِي تُنَحْنِنُنِي إِياها

* * *

٢ - الأم La mamma

أَيُّ مَخْلُوقٍ رَأَيْتَهُ
كَانَ امْرَأَةً
كَانَتْ أُمِّي

وهكذا عرفت الحب من أول نظرة
وأول مخلوق رأيته
كان امرأة :

كانت أمي ،
وقد هامت بحبي
كنت طفلاً ، فلسطينياً
لم يكن لي خيار ، فقبلت
لقد احتفلوا بي
وأول ما تعلمته
هو أن أحب ، وأحب ، وقد أحببت
المخلوق الوحيد الذي أحبه دائماً
هو أمي التي أؤمن بها
إنها امرأة ، وأنا أمي
مسكينة ! لكم صلوات !
وعندي أن القداسة هي الأم
وأمي قديسة

* * *

٣ - حياة المخيم Vita del campo

أتذكّر (الفؤار) :
مخيم تملأه خيام
جيلة وبشعة

وبيوت طينية
وأ تذكر ما كان مكتوباً

على جباهنا :

التعاسة ، والظلم

وسوء التغذية .

أذكر أن اللحم ،

إذا كان جيداً ،

كنا نذوقه مرة واحدة في العام ،

وبدلاً منه كان الخبز ،

خبز الذرة الأسود ،

وخبز الوكالة الأبيض ،

أما خبزنا الخاص ،

الخبز المصنوع من قمحنا

فلم أذقه أبداً <http://Archivebeta.Sakhril.com>

أذكر أهل المخيم :

خليط من مدن وقرى مختلفة

يرتدون خرقاً مختلفة الأزياء

جاءتهم هدية من بلدان أخرى ،

ولكن كان دائماً في قلبي

ملايس الشموخ ايلة في نفوسهم .

أذكر أهلي

أهل المخيم

الفقراء النشيطين

الذين كانوا يعيشون

على أمل العودة إلى بيوتهم

* * *

٤ - أنا بريء Sono innocente

ماذا تريدون مني ؟

أنا بريء

وماذا بوسعي أن أفعل

إن كنتُ قد ولدت فلسطينياً ؟

وماذا جنيت لكى أولد فلسطينياً

وأحيا على هذه الأرض ؟

معذرة ! فأرضي الم تعد لي

ولهذا أشعر بالنقص

وماذا بوسعي أن أفعل ؟

منذ سنين وأنا أقيم في (باقيا)

طالب طب

عليّ أن أدرس فقط

ولكن دائرة الهجرة تريد إبعادي

لا ، لا ، لا ،

فأنا أيضاً مخلوق حيّ !

ليس لي حقّ في شيء

ولكنني بريء ،

وذنبى الوحيد هو أنى
ولدت فى مثل معسكرات الاعتقال

* * *

٥ - العدل La Giustizia

كان عمري عشر سنوات فقط
وكنى فى المرحلة الابتدائية
وذات يوم فى أثناء الاستراحة
وفى أنا ألعب مع أحد الرفاق
صدرت عنا ضجة ما
فتنبه المعلم
ودعانى إليه



وضربنى بالعصا
فصرخت فى وجهه :
هذا ليس عدلاً !
فأجاب مبتسماً :
لو كان ثمة عدل
لما وجدنا هنا
فى مثل معسكرات الاعتقال
من تلك اللحظة أدركت
أن العدل لا وجود له
وأى عدل فى أن شعبنا لاجئاً

يُبعد عن أرضه :
أرض الرب ؟
وما دام على هذه الحال
فلا وجود للموت ، عذري !

* * *

La mia vacanza عطلي ٦

إلى أين ستذهب في العطلة ؟
أتذهب هذا العام إلى بيتك ؟
وكيف الطقس هناك ؟
برد ، أليس كذلك ؟
وكم ستبقى هناك ؟
وسع من ستذهب في العطلة ؟

* * *

إنه وقت العطلة الدسيفية والنسحب !
فإلى أين ستذهب في العطلة ؟
كفى ، لعناً !
كفى تعذيباً
فلن أذهب في العطلة إلى مكان
في وسع كل الناس أن يذهبوا في العطلة
إلى حيث يشاؤون.

حتى إلى بيتي
أما أنا فمحظور عليّ أن أذهب إلى بيتي !
لا أستطيع أن أذهب إلى فلسطين ،
لا في الشتاء ولا في الصيف ،
لا في الحريف ولا في الربيع
لا في عيد الميلاد ولا في الفصح ،
ولا في نهاية رمضان
ولا في عيد الأضحى
الجميع يستطيعون أن يذهبوا إلى فلسطين
إلا اللاجئين أمثالي . . .
إن حلمي الأكبر هو
أن أذهب إلى فلسطين
ولكنني لا أستطيع إليها الأعزاء
أن أفكر حتى في عطلة مدرسية
إلى أين ستذهب في العطلة ؟ !

* * *

٧ - الشيخ داود Sheik Daoud

عرفت في المخيم رجلاً مسنّاً
كان اسمه الشيخ داود
وكان قبل عام ثمانية وأربعين
يعمل إماماً ،

ويعلم القرآن ،
ويقيم الصلوات ،
ويصوم رمضان .
ولكنه بعد ذلك وقع في أزمة :
فلم يعد يقرأ القرآن
ولا عاد يصلي أو يصوم
وكان يقول لربه :
ساومن من جديد
إذا ما عاد أهلي إلى أرضهم
وقد مات في عمان



قال زعماءهم :
إنّ الفلسطينيين لا وجود لهم
ولست أدري
إن كنتُ موجوداً أم لا !

* * *

٩ - أمل Speranza

هل ستشرق الشمس

على الوجوه الحزينة ؟
وهل ستشرق الشمس
على القدس ؟
هل سيهدل الحمام
بأغاني الحرية ؟
ويتحدث الزيتون عن السلام ؟
هل سيجري نهر الأردن سعيداً
نحو البحر الميت ؟
وتقرع الأجراس
ويؤذن المؤذنون في الجوامع ؟
وهل سيقلع الإنسان عن السلب والجشع ؟
وتعود أعراس السلام ؟

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

١٠ - لماذا ؟ Perche

في حزيران عام ١٩٦٧
حلقت الطائرات فوق عمان
تحليقاً منخفضاً
وكنت يومئذ في بيت شقيقي
فأطلقت صفارات الإنذار ،
فارتعب ابن أخي ،
وكان عمره أربع سنوات

لقد خاف وأخذ يبكي
وسأل قائلاً : لكن لماذا ؟
لن أنسى أبداً ،
وإنني لأتساءل دائماً :
ولماذا الحروب ؟!

* * *

١١ - حبيباتي Le mie amanti



ARCHIVE

<http://Archive.be/kkri/>

لي حبيبات كثيرات :
عكّا ، وبئر السبع ، وبيسان ،
وبيت لحم التي تحب المسيح ،
وبير زيت ، ونابلس ، وجنين ،
ويافا عروس البحر ،
وأريحا ، أول مدينة في العالم ،
والقدس الملكة ،
وحيفا ، واللّد ، وعسقلان ،
والناصرية التي تحبني مع يوسف ،
والخليل ، التي تحبني مع إبراهيم ،
ورام الله ، وقلقيلية ، وعجّور ،
وغزّة ، ودورة ، وبيت جالا ،
وطولكرم ، وصفد ، وحلحول ،
والحولة ، وطبريا ، والرملة ،

وخان يونس وصرفند
ولي حبيبات أخريات ،
أحبهنَّ جميعاً .
وحبيباتي تحت الاحتلال
ولكنهنَّ سيُحرَّرن يوماً
إنَّ حبيباتي يحبيني
وأنا أحب حبيباتي ..

* * *

١٢ - هل سيدعونني أموت ؟ ؟ Mi Lascerranno morire

أنا لاجئ ،
ARCHIVE

<http://Archivebeta.Scribd.com>

ولم أكن أفهم معنى ذلك
أذكر أنه كان يقال
إننا لسنا من هذا المخيم
بل من بلد آخر لم أره قط
كانت جدتي تتمنى الرجوع
مسكينة ! لقد ماتت في المخيم ،
ودفنت في الخليل ،
مدينة إبراهيم ..
أما جدِّي فقد مات قبلها بسنة واحدة
ودفن في النبي موسى
وأبي أيضاً كان يتمنى الرجوع

إلى مسقط رأسه
ومن يدري إن كان سيُدفن هناك
كلّا ، فلن يتاح له حتّى هذا الأمل المشروع ،
فهو فلسطيني !
وأُمّي مصريّة من بورسعيد ،
وهناك نستطيع أن تُدفن
إذا وافقت الحكومة المصريّة ،
أما أنا فلا أدري
إن كانوا سيأذنون لي بأن أموت !!



Non abbiamo nulla - لستنا نملك شيئاً

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

يقولون :
ليس لنا برلمان
ولا انتخابات
لنوّاب ولا أعيان
ولا لمجالس بلديّة
ليس لنا دولة ،
ولا ألوية ولا محافظات
ولا ثقافة ولا فن
ويسوقوننا إلى السجون
أو إلى المنافي البعيدة

وماذا في وسعي أن أقول ؟
الأقوياء على حق ! ..

* * *

١٤ - اقتلونني Uccidetemi



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

وددت لو أموت
مقتولاً في بيتي
بقذيفة أميركية
مصنوعة في إسرائيل ،
فهذا يمنحني السعادة
بأن أعود إلى وطني
وأستطيع أن أهنأ بالموت
الذي ترقبته طويلاً
ولكن لا ،
لن يقتلني أحد
لسوء حظي
لا أحد يريد أن يضع مقدوفاً
نعم ،
إنني لا أساوي مقدوفاً
لا يريد أحد أن يساعدني على أن أموت
في وسعي أن أصبر ،
وسأصبر
في انتظار الفرحة في أن أقتل ...

* * *

في أيار
تلقت أسرتي هدية :
رحلة مجانية
غادرت بها أراضيها وأملاكها
وعاد أبي
وعاد لكي يأخذ بعض الأشياء
ولكنه نال هدية
هي السجن ستة أشهر ،
وحين أفرجوا عنه
كانت الهدية التي لقيها
أن وجد ثلاثة من أولاده
قد ماتوا من المرض والتغذية
وبعد أشهر
جاءته هدية :
خيمة في مخيم
مع العمل
واليوم وقد بلغ السبعين
سينال الهدية بعد شهور
بأن يموت في المخيم :
مخيم الحسين !

* * *

مرّة واحدة في الشهر
كانوا يورّعون المون
طوابير تنتظر
لأجل بضعة كيلوات من الطحين
فيها بضع وحدات حرارية
لا تكفي قطة
لست أدري كيف استطعنا أن نعيش !

* * *



١٧ - مهنة مختلفة Vari mestieri

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

في الأردن ، خلال العطلة المدرسية
عملت بائع فول
ومورّع جرائد ،
وأجيراً في مصنع للشوكولاته
وكاتباً في وزارة الأشغال العامة
ومورّع بريد
وفي إيطاليا ، خلال أعوام الدراسة ،
عملت خادماً ،
وبائع بنزين ،
ومترجماً

وقاطف عنب ،
وحمالاً ،
وجرّاف ثلوج ،
وكومبارس ،
وبناء ،
ومدرّساً للإنكليزية ،
ومعلماً للعربية ،
وبائع سجاد ،
وطبيباً مجانيّاً ،
وطبيب نساء مجانيّاً .
ولكنّني لن أبيع روحي لأحد .



ARCHIVE

١٨ - رمال متحركة Sabbie mobili

في طفولتي
بنيت قصوراً على الرمل
والمحزن أنّي لا أزال
أبني ناطحات سحاب
على الرمال المتحركة
فعلّ إنسان خرف
ولكن المأساة هي أنّني
لن أعرف التوقّف ..

١٩ - أنا مضطرب الفكر Ho confusione

تروقي الخصرة كثيراً
والطبيعة تستحوذ عليّ :
الأشجار والروابي ،
والحدائق والكروم ،
والنفاح والبرتقال
ولكنني أحلم بخصرة فلسطين
أشعر أحياناً بأنني مضطرب الفكر ،
أرى الأخضر أسود ،
والأشجار شياطين ،
والروابي براكين ،
والحدائق سموماً ،
والدوالي أفاعي ،
والنفاح سرطاناً ،
والبرتقال غولاً
كلّ هذا لأنهم
لا يدعونني أرى عالمي الصغير

* * *

٢٠ - أنا حمامة Sono colomba

وُلدتُ كالفرخ الصغير

في مخيم للاجئين ،
وتغذيت على ما تقدمه الأمم المتحدة ،
فأصبحت حمامة
أحلم ، أحلم ،
أحلم بحمامة ،
أحلم بوطن ،
وأحلم ببيت ،
أحلم بالسلام
لثلاثة ملايين من الأرقام .
وأحلم بالسلام
لسائر العالم ..



٢١ - الحب القديم cchio amore

كيف لا أتذكرك ؟
وكيف لا أحبك ؟
وكيف لا أحن إليك
يا عزيزتي ، يا حبي ، يا جذوري !
أحبك كثيراً يا حبيبي ..
فلسطين ! أنت حبي الكبير !!

* * *

الجبناء

• وليسارويان • ترجمة: جورج صدقي

نبذة عن الكاتب :

ولد وليم سارويان في العام ١٩٠٨ ، وتوفي في شهر أيار / مايو من عام ١٩٨١ . وهو كاتب أمريكي من أصل أرمني ، عاش في كاليفورنيا ، وألف روايات طويلة ، ومجموعات من القصص القصيرة ، ومسرحيات نالت نجاحاً عظيماً . وقد ترجمت أعماله إلى كثير من اللغات العالمية .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الجبناء هم أفضل الناس ، وأكثرهم إثارة للاهتمام ، وأعذبهم ، وأرهفهم ، وأقلهم ميلاً إلى ارتكاب الجريمة . فلا يخطر في بالهم أن يهاجوا مصرفاً . ولا تتملكهم أدنى رغبة في اغتيال أي رئيس للجمهورية . فإذا صادف أن عاملاً من عمال نسيج الشوارع نعته بأنه مخبول ، لأنه ذرّ ، خطأ ، غباراً في عينيه ، فإن الجبان لا يرن أن شرفه قد لطمح قطعاً ، وأنه مضطر إلى الاشتباك مع منظف الحفر ، والمخاطرة بأن ينال (علفة) خطيرة . بل يقول : « أنا أسف ، في الحقيقة لم أفعل هذا عمداً » ، ويمضي في طريقه .

الجبناء أناس مهذبون . فهم على أقصى درجة من لطف المعاملة . عندما ظهرت دائرة التجنيد في الحي الأرمني من مدينة (فرسنو) ، في العام ١٩١٧ ، تقدم الأبناء المؤهلون لحمل السلاح من مختلف الأسر القاطنة هناك

إلى لجنة إعادة النظر التي كانت تعقد اجتماعاتها في قاعة مدرسة (إمرسون) ،
وسرعان ما التقوا مرة أخرى للتدريب في معسكر (كاري) ، في حديقة
(يوزمايت) الوطنية . لقد كانت الحكومة بحاجة إليهم ، ومن هم حتى
يخاضوا الحكومة ؟

ومع ذلك فإن شاباً في الرابعة والعشرين من عمره ، يدعى كريستوفر
أغباداشيان - وكان يعيش مع أمه وأخواته الثلاث غير المتزوجات في ١٢٣ /
شارع (م .) ، وكان موظفاً منذ ثلاث سنوات في قسم الرجال من مخزن
منطقة (كوبر) - قد اختفى لا أكثر ولا أقل .

انتبه الناس على حين غرة أنه لم يعد يغادر منزله في الساعة الثامنة والربع
بالضبط كل صباح ، ليذهب إلى عمله سيراً على الأقدام ؛ الرجل الأكثر
أناقة في الحي بلا منازع ، حتى لؤلؤة دبوس ربطة عنقه ، حتى زر عروة
يافته .. بالطبع كان عدد كبير من شباب الحي قد جُنِدوا ، فلم يكن هناك أي
سبب يدعو لطرح الأسئلة حول المكان الذي كان كريستوفر فيه في الواقع . أما
أولئك الذين كانوا يحاولون الاستفسار في مخزن (كوبر) ، فكانوا لا يتلقون
جواباً سوى أنه سافر ؛ وهذا ، بالطبع ، كان صحيحاً تماماً ..

أما أمه ، فقد تحوّرت منها إحدى أمهات الجيران - وهي أم جنوداً ولدوا أو
اثنين من أولادها - عدة مرات في السرو في حذر وحرص وتعاطف عن صحة
كريستوفر ، وعن المكان الذي يمكن أن يكون موجوداً فيه ، فتقول مثلاً :

- آخ يا عزيزتي إليزابيت ، يحزّ في نفسي أنني لم أعد أرى ابنك كريستوفر
الوسيم يذهب إلى عمله مثل كل صباح . فهل أخذت الحكومة الصبي
المسكين إلى الحرب كما حصل لابني سيمون وابني فاسك ؟

فتجيب أم كريستوفر : نعم ، لقد أخذوا كريستوفر أيضاً . حماه الله ،

وحى ولديك أيضاً .

ولم يكن هناك ، بالطبع ، أي سبب للشك في هذا الجواب ، ولا للمضي قدماً في البحث والتنقيب . ومع ذلك ، عندما توقفت ذات يوم سيارات (فورد) وسيارات (شفروليه) ذات مظهر رسمي جداً أمام البيت الصغير الأبيض النظيف في ١٢٣ شارع (م .) ، ونزل منها أمريكيون ذوو ملامح تتسم بالقدر نفسه من المهابة ، فطرقوا الباب ثم دخلوا ، فإن جميع الناس في الحي أخذوا يتساءلون عما يجري . هل يمكن أن يكون كريستوفر قد قضى نجه ، وأن يكون هؤلاء الأمريكيون ذوو الملامح العظيمة المهابة - إنهم موظفون لدى الحكومة بلا ريب - قد جاؤوا إلى هنا ليقوموا بزيارة أم كريستوفر وأخواته ، لكي يبلغوهن النبأ بالطف أسلوب ممكن ، ولكي يقوموا بواجب التعزية بكريستوفر ، بوصفه أول فتى من الحي الأرمني يبذل حياته في سبيل الحكومة ؟ ولكن عندما توقفت ، بعد شهر ، ثلاث سيارات أمام البيت ، ونزل منها أناس على أعظم قدر من المهابة ، ومن بينهم رجل يتقلد علامة (الشريف) ويحمل مسدساً في حزامه ، فإن سكان الحي قالوا في أنفسهم : إنه لا بد أن أمراً يدعو إلى الريبة قد حدث .

وذات يوم قالت الأم إليزابيث ، وهي تلفّ تيناً عند (غاغنهايم) ، لأعز صديقاتها ، أرشالوس غانجاكيان : « ضعي نفسك لحظة في مكاني ، وافهمي عصبيتي . لقد بلغ مني القلق بشأن ابني مبلغاً جعلني لا أعرف النوم أبداً . لقد اعتقدنا أنه أخذ إلى الجيش ، شأنه شأن الآخرين جميعاً ، ولكنهم يقولون لنا أن لا ، وإنه ليس في الجيش ، وإذن أين يمكن أن يكون يا أرشالوس ؟ لقد كنت أفضل ألف مرة أن يكون حقاً في الجيش ، وأن يكتب لي مرة في الشهر . ها قد مضت ستة أشهر ولا خبر منه مهما كان ضئيلاً . لقد وصل بي الأمر أنني أصبحت أصلي لكيلا يكون قد حدث له مكروه » .

فأجابتها صديقتها : « آه ، إنه فتى طيب . الله سيرعاه . أرجو أيضاً ألا يكون قد ذهب ليحشر نفسه في مكان من أماكن الضلال . في مدينة كبيرة كسان فرنسيسكو مثلاً ، أو شيكاغو ، أو حتى نيويورك . سأشعل شمعة لأجله في الكنيسة يوم الأحد ، وسأتلو صلاة ، لأنه فتى طيب » . ثم بعد أن اشتغلت في صمت مدة نصف ساعة كاملة ، كي تجني من ذلك كله حوالي دولارين أجرة عشر ساعات عمل في اليوم ، استطردت الصديقة قائلة : « أوهناك ما يمكن أن يكون أسوأ من حياة ماجن هنا أو هناك ، أتضرع إلى الله ألا يكون قد ذهب فأغرق نفسه في هذا النهر أو ذاك ، كما فعل غيره من الفتيان لأنهم لا يؤمنون بالحرب ، ولأنهم يرفضون أن يصبحوا جنوداً . اسمعي ، مساء أول أمس فقط ، قرأ ابني الأصغر يدفارد قصة من هذا القبيل في (الايفنغ هيرالد) .

وعلى هذا النحو سرت شائعة جديدة في الحي بشأن كريستوفر تقول : « لقد سافر ، لقد اختفى ، لم يكتب لأمه مرة واحدة خلال ستة أشهر ، ربما كان في سان فرنسيسكو يحيا حياة الخطيئة ، أو أنه أغرق نفسه في مكان ما . اذكروه في صلواتكم » .

ومضت شهور طويلة أيضاً ، وبقي كل شيء على حاله .

من باريس ، كان هيغوس بابويان يرسل بطاقات بريدية تحمل صورة برج إيفل وقوس النصر والتويلري ، إلى الأعضاء التسعة في مدرسة الأحد ، التي كان معلماً فيها ، في الكنيسة المشيخية الأرمنية الأولى ، رايوا دعابات من هذا النوع : « إن شوارع باريس ملأى بالرجال الذين ولدوا مشوهين ، بسبب الزهري الذي أصاب آباءهم » ، وأمور أخرى من هذا القبيل .

قتل جيساغ جاماناسكيان في (فردان) ، وفاهرام فاهارميان في (شاتوتيري) ، والثوأمين كاسابيان ، كريولا وكاركين ، في غابة (بيلو) .

كلهم كان عمرهم أقل من خمسة وعشرين عاماً ، وكلهم جيء بهم من أرمينيا إلى (فرسنو) وهم أطفال صغار في أحضان أمهاتهم ، أو وهم صبية صغار جداً . ولكن هناك الكثير غيرهم أيضاً ، ممن سقطوا في ميدان الشرف في فرنسا أو الفلاندر أو النورماندي أو في مكان آخر . وهناك عدد من سيئي الحظ منهم ، ماتوا بنزلة وافدة قوية أصابتهم في حصن (كاري) ، فكان لا علاقة لهم بالحرب البتة . وهناك اثنان أو ثلاثة لاذوا بالفرار ووصلوا إلى سان فرانسيسكو ، ولكنهم قفلوا عائدين بعد أسبوع أو أسبوعين ، فمروا بعيادة طبية ولم يعاقبوا إلا عقوبة طفيفة . وحوالي ستة من فتيان الحمي أصيبوا بالغاز ، ولكنهم ظلوا على قيد الحياة . وهو سيب لوسينيان - الذي أصابته شظية قبلية ، فظنوه ميتاً وتركوه في ذروة القصف في المنطقة التي تدعى (المنطقة المحايدة) - قرت نفسه واطمأنت وعدّ نفسه ميتاً ، عندما وصل أحدهم إليه زاحفاً ، وجرّه إلى الملجأ . وتبين أن هذا كان الشخص الوحيد في السرية كلها الذي كان هوسيب لا يحبه ، بل ويعذّه عدواً ، وهو فتى آشوري من (تورلوك) يدعى جو آشوري . أصبحا صديقين مدى الحياة ، يتنازعان دوماً وفي كل حين ، فيصرخ جوقائلاً : « ما كان أغباني حقاً عندما خاطرت بجلدي من أجلك » ، ويحبه هوسيب على هذا فيقول : « كل ما أنتظره هو الفرصة لأردّ لك ذلك . وبعدها الوداع ! » .

* * *

في أوائل شهر تشرين الأول / أكتوبر ١٩١٨ ، وفي محلات (غاغنهايم) ، سألت إليزابيت خير صديقاتها أرشالوس غانجاكيان ، فقالت : « أصبح أن الحرب ستنتهي في القريب العاجل ؟ » .

أجابت أرشالوس : نعم . يدفard يجد أموراً جديدة حول هذا الموضوع في الجريدة كل يوم . جميع أبنائنا سيعودون في القريب العاجل . في القريب

العاجل سارى ولدي مهراڻ من جديد ، وأنت ولدك كريستوفر ، أنا واثقة بذلك ، حيثما كان موجوداً في الوقت الحاضر . أما زلت لم تتلقي أخباراً منه ؟ قالت إليزابيث : لا ، لا شيء ، ها قد انقضت سنتان ، ولا كلمة .

ولكن منذ أكثر من سنة ، وأهل الحي كلهم كانوا يسمعون كلاماً عن كريستوفر ، وأموراً يضعونها موضع الشك ، وفي الوقت نفسه يصدقونها قليلاً . وقد جاء ذلك في أعقاب أمر رواه آش باشمانيان ، الذي كان يذهب في كل مساء ، بعد أن يكون قد فرغ من بيع جرائده ، إلى سينما (الحرية) ، حيث كانت أجرة دخوله تقتصر على نسخة من الجريدة يدسها للبواب ، فلا يخرج إلا بعد انتهاء الحفلة الأخيرة ، الأمر الذي يعد ، بالنسبة إلى (فرسنو) وقتاً متأخراً نسبياً : أي بعد منتصف الليل بقليل . فعندما عاد آش إلى بيته وجلس أمام وجبة عشاءه ، أخبر أباه قائلاً : « قبل قليل ، رأيت كريستوفر » .

بعد ذلك بيضع دقائق أجاب والده : « لم أكن مصغياً . إنني قلق لعلمي أنك تكون في السينما كل مساء . ماذا كنت تقول ؟ »

قال آش : - كريستوفر . لقد رأيته .

- كريستوفر أغباداشيان ؟

- أجل . ذلك الذي كان يشتغل في قسم الرجال من مخزن (كوبر) .

قال الأب : - كنت تحلم . من كثرة ما رأيت هذه الأفلام كلها ، لذلك .

- كلا ، أقول لك إنني رأيته .

- لقد سافر منذ حوالي سنتين . فكيف أمكن لك أن تراه ؟

قال آش : - إذن لا بد أنه عاد .

سأل الأب : - من أين ؟ هل كان في اللباس العسكري ؟

- كلا . كان لابساً عين الثياب التي يلبسها عادة .

- إلى أين ذهب ؟

- إلى منزله .

- منزله أين ؟

- في شارع (م .) ، لقد رأيته يدخل إلى منزله ، وأنا قفلت راجعاً إلى

هنا .

قال الأب : - أرجوك ، احتفظ بهذا لنفسك .

- لماذا ؟

- احتفظ بهذا لنفسك ، هذا كل شيء . لم يعد ما في وجهك عينان ،

بل ثقبان بعد هذه الأفلام كلها ، وكريستوفر تبحث الحكومة عنه . فلننس هذا كله . أنت لم تر شيئاً . ومكافأة لك سأعطيك دولاراً .

هتف آش قائلاً : أنا لا أريد دولاراً . إني أبيع الصحف كل يوم لكي أستطيع أن أجلب قليلاً من النقود للبيت . لن أقول هذا لأحد ، ولكن الأمر المؤكد هو أنني رأيته .

لا بد أن شخصاً آخر قد رآه أيضاً ، لأن الشائعة انتشرت بسرعة في الحي كله بأن كريستوفر أغباداشيان قد عاد . فإما أنه لاذ بالفرار وعاد ، أو أنه ظل مختبئاً في المنزل رقم ١٢٣ شارع (م .) هذه المدة كلها ، إلى أن أصبح الأمر فوق الطاقة ، فأخذ يخرج للنزهة في وقت متأخر من المساء .

وراجت نكتة حوله ، فأحدهم يسأل : - أين كان ؟

فيأتيه الجواب : - تحت السرير .

ولا ريب في أن الشائعة التي راجت في الحي قد بلغت مسمعي خير صديقات والددة كريستوفر ، أرشالوس غانجاكيان ، إن لم نقل إنها بلغت

مسمعي إليزابيت .

وبعد بضعة أيام من حديثهما عن نهاية الحرب المرجحة ، قالت اليزابيت لأرشالوس غانجاكيان : « أرشالوس ، يا صديقي ، ينبغي في طريق عودتنا إلى بيتنا أن أحكي لك أمراً ، لأنني سأموت فيما أعتقد إن لم أفعل » . وفي طريق العودة ، عندما تأكدت من عدم وجود أحد يمكن أن يسمعها ، قالت : « كريستوفر لم يذهب إلى أي مكان . لقد كان في البيت طول هذا الوقت . إنها غلطتي . لقد قلت له إنه إذا ذهب سأموت . لقد مات والده عندما كان لا يزال صبيّاً صغيراً لا يقدر على شيء . فما كان بوسعي أن أتحمّل فقدان الرجل الوحيد الباقي في الأسرة . ولكن ، ما العمل في الوقت الحاضر ؟ ماذا يحدث له عندما تنتهي الحرب ، ويعود جميع الناس ؟ كل هذا بسبب غلطتي ، أقسم على ذلك ؛ فلا ذنب له البتة . ساعديني . أعرف أن بوسعي أن أثق بك ، وأنتك لن تتحدثي بذلك إلى أحد . ساعديني ، أتوسل إليك ، وسأرد لك ذلك مائة ضعف . ماذا أعمل ؟ ماذا تعمل ؟ » .

* * *

في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ وضعت الحرب أوزارها . وهذا كل شيء ، فيما عدا الفتى الذي غرق في (كنغسبرغ) ، وأولاد الحارة الذين ماتوا بالنزلة الوافدة في معسكر (كاري) ، وكريستوفر الذي لحقه العار ، كريستوفر (تحت السرير) ، وهو اللقب الذي أطلقه عليه الجميع . ولكن لم يكن أحد ينظر إليه من عل ، وما من أحد أيضاً كان يحتقر أمه . كريستوفر وأمه وحدهما كانا يعرفان ما فعلاه ولماذا فعلاه . وما من أحد غيرهما كان يوسعه حتى أن يخمنه تخميناً . مهما كان من أمر ، وبأية طريقة حدث هذا ، فإنه أمر يسوّى بينها وبين الله ، وليس مع الحكومة ، التي من المؤكد أنه لديها أشياء أكثر بكثير مما لديه من حساب يقدمه إلى الله .

على مدى أسابيع وأشهر ، وبينما كان أولاد الحارة يعودون إلى بيوتهم ويلبسون من جديد ثيابهم النظيفة ، ساد اختلاط فرح في الحي الأرمني كله ، فقط مع انفجار من انفجارات الحزن هنا أو هناك . وهذا على نحو شبه دائم من جانب الرجال الأصلب والأقوى ، من أمثال شولا فاري باشانيان ، الذي كان - عندما يسألونه عن سبب بكائه طالما أنه ليس له أي ولد في هذه الحرب - يجيب قائلاً : « بسبب كريستوفر . الذي فضحوه وشهروا به بسبب شجاعته . الواقع أنه جبان . ولكن الرجل يحتاج لكي يكون جباناً إلى قدر من الشجاعة أكبر بكثير من القدر الذي يحتاجه لكي يكون شجاعاً . أي شيء أيسر على المرء من أن يكون جندياً للحكومة مع جميع رفاقه في الوقت نفسه ؟ ولكن ما أصعب على الإنسان أن يكون ذاته ، وحيداً تحت السرير في بيت أمه . إنني أبكي على شجاعة كريستوفر . لقد انتهت الحرب . والذي ربح . أيأ كان ، ربح بغير كريستوفر . سامح الله المنتصر وكذلك المهزوم : إن لكلا الجانبين موتاه الذين ينبغي البكاء عليهم . رعا الله كريستوفر (تحت - السرير) حيثما حل وحيثما ارتحل » .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

في هذه الأثناء ، وقبل توقيع الهدنة ببضعة أسابيع ، ذهب إلى (سكرامنتو) ، حيث حصل على عمل تحت اسم تشارلز أبوت في قسم الرجال من محلات (روس اخوان) ، الذين سرعان ما قدموا له عملاً أعلى أجراً في مخزنهم بسان فرانسيسكو ، حيث بقي ثلاثة أعوام ، فتح بعدها مخزنه الخاص به في شارع (بوست) .

وهناك وبعد ست سنوات استطاعت الحكومة أن تضع يدها عليه . كان قد تزوج فتاة من بوسطن ، نصف اسكتلندية ونصف ايرلندية ، متخرجة من جامعة (سميث) ، رزق منها بثلاثة صبيان وبنت . وتزوجت اثنتان من أخواته ، وماتت الثالثة ، وكانت أمه تعيش وحيدة في المنزل رقم ١٢٣ شارع

(م .) ، حيث كانت أحياناً تتلقى زيارة ابنتيها وزوجيهما وأولادهم .

قال ممثل الحكومة ، الذي كان في حوالي السبعين من العمر ، ويدعى باتاغليا : « إن ما نريده بالدرجة الأولى في الواقع هو أن نضرب صفحاً عن كل هذه الأمور . فهل أنت حقاً كريستوفر أغباداشيان ؟

قال كريستوفر : - نعم . رغم أنني ، كما تعلم ، استخدمت اسماً مستعاراً - هوتشارلز أبوت - منذ أكثر من عشر سنوات . لقد كان في نيتي دائماً أن أجري هذا التغيير على كل حال ، لأن اسمي عسير لفظه جداً بالنسبة إلى أمريكي ، ولأن اسم جدي لجهة أمي هو آهبيت ، الذي يكاد يكون له الجرس نفسه الذي لاسم أبوت .

قال باتاغليا : - حسناً ، هذا كله معقول . أهي حالة من قبيل فقدان الذاكرة ؟

قال كريستوفر : - كلا ، لم يكن الأمر فقداناً للذاكرة . لقد بقيت مختبئاً في بيتي لأنني لم أكن أريد الذهاب إلى الحرب . لقد كنت أعرف ما أعمله تمام المعرفة . كانت والدتي وأخواتي يتوسلن إلي كل يوم كي أسلم نفسي وأذهب إلى الجيش ، ولكنني رفضت دائماً . إنني لم أنس شيئاً من هذا كله . فلم يكن هناك فقدان ذاكرة . وقد أظهرت لي الحياة قدراً عظيماً من الطيبة ، فأنا لا أشعر بالارتباك ولا بالخجل من ذلك . في المدينة التي ولدت فيها توجد حفنة من الناس اللاتنيين تماماً ما زالوا يتذكرونني على أنني كريستوفر (تحت - السرير) . بل إنني بدأت أحدث أولادي في هذا الموضوع . وحتى الآن يبدو أنهم يجدون هذا عجباً جداً .

قال باتاغليا : - فهمت . في الحقل الذي عنوانه (سبب التخلف) ، كتبت (فقدان الذاكرة) ، حتى إذا ما خطر لأحدهم أن يلقي نظرة على هذه

البيانات ، وهذا ما أشك فيه كثيراً . في رأيك ، ماذا كان ينبغي أن أكتب ؟
قال كريستوفر : - جيان .

قال باتاغليا : - سيكون هذا خطأ على الأقل كما أن فقدان الذاكرة خطأ
سواء بسواء .

ودون بعض الكلمات في الحقل المخصص وأعلن قائلاً : - هوذا :
(أب) ، أنا واثق بأن هذا يسوي المسألة . هذه حكاية منتهية .

وخرج من الدكان وكأنه دخل بنية شراء شيء من الأشياء ، ولم يجد فيه
شيئاً على ذوقه .

إن الجبناء أناس طبيون ؛ إنهم يشيرون الاهتمام ، إنهم لطفاء ، وهم
لا يخطر ببالهم أبداً أن يطلقوا النار على موكب سائر من أعلى برج من
الأبراج . إنهم يريدون أن يعيشوا ويعرفوا أولادهم . أن الجبناء شجعان جداً .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

التمساح المجاز

• مانفريد كوبر ١٨٨٠ - ١٩٣٣

• ترجمة: إريناداوور

« في حياة الحيوان ملهامة ومأساة كما في حياة الإنسان » .

هذا ما قاله (مانفريد كوبر) الذي ألف في العصر الحديث أجمل القصص عن الحيوانات . ويتابع (كوبر) : « في أغلب الأحيان يعتقد الناس أن هوة تفصل بينهم وبين الحيوان ، وما هي إلا درجة في سلم الحياة . إن الكائنات الحية كلها أولاد وحدة متكاملة » .

<http://Archivebeta.Sakhrji.com>

ومن خلال هذا الموقف يصور (كوبر) الحيوانات - أبطال قصصه - بأحاسيس الإنسان وتصرفاته . والقصة التالية التي تدور حول التمساح ذي الشهية المفتوحة تشكل حالة من حالات التماثل بين تصرف الحيوان ومشاعره . وبين تصرف الإنسان .

من كتاب (أجمل قصص الحيوانات) جمعها (هريبرت فند) (ص ٧٠ - ٧٦) دار النشر : جمعية الكتاب الألماني ، برلين - دارسنتات - فينا .

التمساح المجاز

كان هناك صحراء وفيها نهر وفي هذا النهر عاش تمساح . ويؤسفني أن

أقول - ولكنه من الحق أن يقال - أن جنس التماسيح غير محبوب لدى الجميع .
وليس السبب في أنها تهمل مظهرها إهمالاً تاماً ولا في وجود التجاعيد السمجة
حول أفواهها - فما هي إلا شكليات - وإنما السبب الحقيقي لعدم محبة التماسيح
هو شهيتها المفتوحة أبداً . وموقف العالم من هذه الظاهرة موقف واحد لا خلاف
فيه : فكلما ازدادت الشهية ضعف الحب لصاحبها . إن الحب والصداقة
لا يزدهران إلا في جَوْ خال من الطمع . وقد يشترط بعض المغالين ، ولو من
قبيل الأخذ بأطراف الأحاديث ، شرطاً يدل على شيء من ضيق الساحة وهو
طلب الأمن من خطر الاتهام بل حتى العضضة . صحيح أن مثل هذا
الموقف لا يراعي إلا مصلحة طرف واحد ولكنه مع ذلك موقف معقول ، فليس
هناك من أحد يريد لمجرد تبادل بعض الكلمات اللطيفة أن يضحي ببذيه أو
برجليه التي يحتاج إليها من جهة والتي هو صاحبها على كل حال من جهة
ثانية . إذاً ، ليس لأحد أن يحزن إذا ما استهدفنا ابتلاعه . ولما كان التماسيح
يشتهي كل شيء ويؤيد أن يتلعه فلا غرو أنه مخلوق غير محبوب لدى الجميع .
إنه يتلعه كلاً من المبشرين والضفادع والزنوج والقردة وحتى أفراد أسرته لا يتردد
في ابتلاعهم . وكل ذلك بسبب شهيته المفتوحة أبداً . فكل ما يدخل جوفه
مفيد لصحته - والحمد لله - وكله حتى أقرباؤه سهل الهضم على معدته .

كان هذا التماسيح إذاً مستلقياً في النهر الذي حفر مجراه في الصحراء وكان
يشتهي لقمة وكان شرس النفس . إنه لم يكن شرساً لرغبته في الأكل ولكن
بسبب عدم وجود شيء يحقق رغبته . وفي مثل هذه الحالة يمكن أن يتحول كل
واحد إلى مخلوق شرس بل حتى لو كان سيدة ذات مشاعر رقيقة .

« لورجل أبيض بين فكّي ، فما أطيبه » . قال التماسيح . وأغمض
عينيه في وجه شمس الصباح . « إن أطيبهم للفظورهم البيض ، أما السود
فيستحسن تناولهم لوجبة الغداء لأن لهم أكبر نسبة من الزيت ولذا يكونون أكثر

إشباعاً . والفرق بينهم كالفرق بين الدجاج والبط . أما تجار الخمر فظريف
طعمهم كطعم لحم الصيد وذلك بفضل تعاطيهم الخمر وأغلب الأحيان
يتمتعون بحالة صحية جيدة » .

وابتسم التمساح ابتسامة حزينة مما زاده - مع أسفي الشديد - قبحاً ليس
بقليل ولا سيباً في القسّات من حول فمه . « حتى طعام وطني مفقود » استأنف
التمساح وبلغ لعابه من لوعة جوعه . « إنني رضيت بطعام شعبي ، ابن الأخ
مثلاً وابنته . ولكني قد أكلت نصف الجماعة ففضل النصف الآخر أن يسبح مع
التيار مما يؤكد على عدم الشعور بروابط القرابة . ماذا إذا نفيد الشهية والحالة
كذلك ؟ » .

ووسّد التمساح معدته الجائعة في الوحل الأكثر عمقاً ثم أغمض عينيه
مستسلماً وكان يتشاءم من غير أن يغطي فمه بكفه الأمامية لأن فمه أوسع بكثير
من أن يغطي بالإضافة إلى أن التمساح لا يتم اهتماماً بالغا بأداب اللياقة .
<http://ArchiveBeta.Sakhr.it.com>
« سأنام قليلاً » فكر التمساح واستقر في غفوة .

جلس على شجرة النخيل قرد صغير كان يدندن بصوت خافت وهو
منهمك في البحث عن النباتات وخصائصها . تميز هذا القرد الصغير بالمرح ،
وكان يسره في كل لحظة التفكير في كونه قرداً ثم في أعجوبة وجوده في هذا
العالم . ومن حين إلى آخر كان يقوم بالتدريب على بعض الحركات الرياضية
على (طريقته الخاصة) وتبعاً للمنهج الذي يقول : « كيف أحقق أجمل ذنب
لي وأطول يدين وأقصر رجلين ؟ » ، وبعد ذلك استقر على غصن وبدأ يفتش
عن العناصر الأجنبية والمزعجة في فروه وطردها دون أن يفرق بين ذكر وأنثى أو
صغار في نعومة طفولتهم . كان عملاً شاقاً ولكنه كان مثمراً ومفيداً .

« إنني أقدر على حك جسمي في ثلاثة مواضع في آن واحد » قال القرد

الصغير وابتسم بمتهى الرضا عن نفسه . « ذنبى وإحدى رجلى يحولان دون وقوعى وأما ما تبقى فيحك . ما أعظم حكمة الطبيعة ! » . حقاً ، كان مزاج القرد الصغير مزاجاً مرحاً ومتواضعاً . وبينما كان يعيد النظر في ثوبه أفلقه صوت التمساح المبحوح بعض الشيء . وكان التمساح قد ألقى بنظره إلى الأعلى حيث اكتشف القرد الصغير . « صه . يا سيدي » ، ناداه : « انزل ، فإنى أريد أن ألتهمك » . قال : « ألتهمك » إذ أن أسلوب التمساح التعبيري أسلوب غير مؤدب .

ذعر القرد الصغير ذعراً شديداً وقال بصوت باك : « كلا ! » وقد وقف شعره من الخوف حتى تفرقت العناصر الأجنبية في فروه إلى كل الجهات وعلى غير هدى .

« يعني أنك لا تريد النزول » نفخ التمساح بشماته وأخرج الهواء بغيط من منخريه : « حسن ، سأنتظر حتى يدفع بك الجوع من الشجرة حين تخلو من كل شيء نافع . ليس في هذه الحياة أهم من الشهية . وهذا ما أعرفه » .

لم ينس القرد الصغير بكلمة أخرى بل تناول سعفاً من النخيل خباً فيه وجهه وانتحب كسير النفس . أين الآن حكمة الطبيعة ؟ وما فائدة اليدين الطويلتين والرجلين القصيرتين التي اكتسبها بالتدريب على طريقتها الخاصة إذا كانت نهايتها أن تلبع ؟ « ما أشد غطرسته » زجر التمساح ثم تنحج حاقداً : « يتدلل وكأنه من ألد المأكولات مع أن لحم القردة من اللحوم العادية جداً » .

والحقيقة أن القرد الصغير لم يكن متغطرساً على الإطلاق بل كان خائفاً أشد الخوف من أن يُلتهم ، وبدأ يفكر في أبيه وأمه وابنة الجار الكبرى التي قبلته القيلة الأولى مكافأة للطيف حينما كان يمشط فروها الناعم . ولا تختلف تلك المشاعر إن كان صاحبها إنساناً كبيراً أو قلب قرد صغير مرتحف - وما يصح في

ساحة المشاعر كثيراً ما يصح في أمور أخرى . وعلى كل هناك قوة خفية تؤم المخلوقات المسكينة الخائفة برحمتها وهي التي قد أشفقت أيضاً على القرد الصغير . وما كاد يتناول سعفاً ثانياً ليسكب فيه دموعه حتى شعر بذنب قرد يطوقه وصوت يهمس له بفكرة - لعله أمه أو أبوه أو بكر الجيران . . ؟ وكانت الفكرة رائعة إلى حد جعل القرد الصغير يتوقف عن البكاء على الفور واستوى شعره وتהלل وجهه فبدأ عليه السرور الذي له جمال خاص حين يغمر وجهاً قبيحاً .

« صه ، سيدي » قلد القرد التمساح ورمى رأسه بنوى التمر . « هل تملك إجازة ؟ » وكم الذين يشبهون هذا القرد . ما يكادون يسلمون من الخطر حتى يرشقون نوى التمر . هكذا سلوك البشر ، ووجوه الشبه كثيرة بين البشر والقردة .

« ولم الإجازة ؟ » سأل التمساح بريية . « أريد أن ألتهمك ، وهذا ما سأفعله » . شبك القرد الصغير يديه الطويلتين فوق صدره وألقى إلى التمساح نظرة المتفوق ثم قال : « إن كل الناس المحترمين في الصحراء هم أصحاب إجازة ، أما من ليس له إجازة فيعتبر غير شريف . ولكن للحصول عليه يجب أن يكون لديك ما ليس لدى الغير » .

« لن يطول الأمر حتى أقبض عليك » فكر التمساح متزعجاً ، ولكنه أخذ يقلب الأمر في ذهنه لأنه كان يتمنى أن يصبح شريفاً . ولما كان دماغ التمساح من الحجم المتواضع - إذ كلما تزداد سعة الفم يصغر حجم الدماغ - فقد نفذت قدرته على التفكير بسرعة . سأل أخيراً : « قل لي ، أين تعطى الإجازات ؟ » فأجابه القرد : « تعطى الإجازات عند لجنة الإجازات الصحراوية وهي عبارة عن مكتب » .

فكر التمساح على مهله ثم قال مستفسراً : « وكيف أصل إليه في أسرع وقت ممكن ؟ » وأضاف : « على ألا تكون الطريق إليه طويلة وأن تبقى أنت هنا في انتظاري . يجب أن أتأكد من ذلك » .

« بكل تأكيد » قال الفرد الصغير وفرك يديه فرحاً : « يقع المكتب - وشأنه شأن كل المكاتب - في الصحراء . أتمنى لك النجاح ! » .

زحف التمساح إلى ضفة النهر فسار متمهلاً في طريقه إلى قلب الصحراء . بعد حين وصل إلى كوخ خشبي حيث توقف قليلاً وهو يفكر : « ها أنذا ! » كلام ولا شيء وراءه . أما هذه المرة فقد صحت العبارة إذ أعلنت على الكوخ بأحرف كبيرة : « لجنة الإجازات الصحراوية شركة محدودة (العقل) » . في هذه اللحظة ترك الكركدن المكتب بهزة وديعة من رأسه . وأما التمساح فدخل إلى المكتب حيث وقف أمام أعضاء اللجنة .

كانت اللجنة تتألف من الجمل وأبي سُّعْن (*) والفهد . وكانت وظيفة الجمل التسجيل في المستندات وترتيبها وغيرها من أعمال الكتابة ؛ تدلت شفته السفلى من وجهه تعبيراً عن خضوعه التام وحول عنقه وسام الشرف الصحراوي العام على شكل طاحون بالوان علم البلد . وكان أبو سُّعْن أصغر وقد شغل منصب المستشار القانوني . أما الفهد ، ممثل السلطة الشرعية ، فكان جالساً عند مكتبه منهمكاً في العناية بأظافره .

وحينما رأى التمساح أن اللجنة كلها كانت صالحة للأكل حرك فكيه بصوت مسموع من شدة الشهية .

« كفى صوتاً » صرخ الفهد غاضباً : « إنه مما يثير الأعصاب » .

انزعج التمساح ولكن رغبة في الإجازة وضع الفك العليا على الفك

السفلى بتواضع وامتنع عن إصدار أي صوت آخر .

« ماذا تريد ؟ » سأله الجمل ورفع شفته السفلى .

أجاب التمساح : « إنني أريد إجازة » .

« ولأي شيء ؟ » .

« هذا لا يهمني على الإطلاق » قال التمساح . « إن شئت لأجل

شهيتي »

قال الفهد متدخلًا : « أمر مضحك الشهية موجودة لدى الجميع » .

« إذن فلأجل فمي الضخم » اقترح التمساح بقلب منكمش من

الخوف وفتح فمه على مصراعيه طالبًا الاستحسان .

« فعلاً ، فمك كبير جداً كما نرى » لاحظ أبوسعن بصفته مستشاراً

قانونياً ، « ولكنك لست الوحيد الذي له فم كبير بل كثير من البشر هم فم أكبر

من فمك بكثير » .

ذرف التمساح دمعتين من دموعه المشهورة لضخامتها وحقق بيلادة

وحيرة في اللجنة التي كان أعضاؤها كلهم صالحين للأكل . ولكن بعد ذلك

ساوره الغضب وأخذ يحرك ذنبه المدرع بعنف من جهة إلى أخرى إلى أن قال

متزعجاً لاهثاً من ضيق التنفس : « ولكن لا بد لي من الإجازة » .

« اسكت ! وإلا ستطرد من هنا ! » صرخ الفهد وضرب بكفه على

المكتب .

« أجل أسكت » هدر الجمل وقد أسدل شفته السفلى معلناً عن

خضوعه وهو ينظر بطرف عينه وبهمة الحدام نحو الفهد .

« لوسمحت لي بنصيحة » ، لشغ أبوسعن بكل أدب ليهدى الجو ،

« أنا لو كنت محلك لطلبت إجازة لأجل أسناني . فكما لاحظت حينما فتحت

فمك الجدير بالاحترام أنه يتميز بسعة عظيمة وهو على كل حال فريد في

نوعه . ويمكن تسجيله تحت أنواع المقررات .

« هيا بنا » ، قال الفهد موجهاً كلامه إلى الجمل وهو يمسح خطمه .

« أسمعنا المسجلات ! » فقرأ الجمل بصوت هادر وبحرص شديد على الرتبة لأنه كان من ذوي الرأي القائل بأنه لا يليق بموظف صغير أن يبرز كلمة دون أخرى من تلقاء نفسه .

« إجازة رقم واحد للأفعى ذات النظارة لأجل صورة النظارة على رأسها ،

قسم بصريات ،

إجازة رقم اثنان صاحبها الكنغر لأجل جيبه على البطن ،

قسم نوفوتيه ،

إجازة رقم ثلاثة صاحبها الكركدن لأجل قرنه على الأنف ،

قسم مجوهرات » .

« بإمكانك أن تختار بين إجازة الإنكليزية والألمانية » قال أبو سعن

للتمساح ، « وتجد على الإجازة الألمانية العبارة Made in Germany

وعلى الإجازة الألمانية العبارة Facon de Paris » .

« وأيهما الأفضل ؟ » سأل التمساح مرتاباً .

« إنها مجرد مسألة ذوق » أجاب أبو سعن : « فالكنغر مثلاً اختار الإجازة

الإنكليزية مراعاة للظروف السياسية والاجتماعية السائدة في أستراليا ، بينما اختار الكركدن دون تردد « Facon de Paris » لاهتمامه بالأناقة فقط .

« أنا أريد الاثنتين » قال التمساح .

« هذا غير ممكن » اعترض أبو سعن وهزّ جنبيه متأسفاً . « ولكن ، بما

أن بضاعتك من نوع المغرمة أنصحك أن تختار الإجازة الإنكليزية » .

« كفى » صرخ الفهد . « واكتب : إجازة رقم أربعة ، صاحبها التمساح لأجل مفرمة - في فمه - يعني قسم أدوات المطبخ ، والسلام عليكم » . قال الفهد ونهض من مكانه واضعاً ذنبه بين كفيه وفق الرسميات ثم ترك المكتب مقرأ ، فقد انتهى دوامه في المكتب .

حرر الجمل الإجازة وسلمها أبوسعن للتمساح محذراً فقال : « خذ بالك ، فإن الإجازات لا تجدى إلا للزينة وهي مصنوعة بطريقة الوهم الذاتي من مادة التقليد المتهاكة تماسكاً بالغاً وهي ماد صعبة الهضم - وبالنسبة ، هي طريقة عالمية ، لذلك إياك أن تبلعها . ثم استأذن قائلاً : « تشرفنا » وانصرف بلباقة ليتناول فطوره الذي تكوّن من دودة طويلة غلفتها زوجته في ورق زبدة .

والجدير بالذكر أن أسرته كانت تسكن بجوار مستوطن أوربي فكانت متحضرة جداً ، ومن هنا جاء ورق الزبدة والمعلومات الشرعية .

حينما رأى التمساح المستشار القامو في يتناول فطوره خارت قواه . لذا أخذ بمنتهى الرقة الإجازة بين أسنانه وانصرف مسرعاً نحو ضفة النهر بغية التهام القرد الصغير . ولكن القرد الصغير لم يعد يرى له أثر .

« ما أقل وفاء الناس بوعودهم هذه الأيام » فكر التمساح : « لا غريب إذاً أن يجاز القديم والمثين » . وانتفخ كبرياء ثم غاص وسط الوحل العميق .

هكذا ظل مستلقياً عدة ساعات حتى إذا ما جاء المساء وتجمع خلق كثير في النهر وعلى ضفتيه لتناول وجبة العشاء مرّبه تمساح صغير وهو يسأل : « لماذا لا تأكل شيئاً ؟ » ظهر على هذا الصغير علامات الشبع والرضا وقد بلع بطلاقة وجهه بقايا قريب له .

استعصى الكلام على التمساح فلثغ متغطرساً : « إنني لتمساح مجاز ، ولا أستطيع أن أكل لأن إجازتي في فمي ، أما بالمقابل فقد أصبحت شريفاً » .

« أنا من ناحيتي أفضل الشبع » قال التماسح الشاب ثم تابع :
« فعلاً ، منظرُك يدل على أنك لم تأكل شيئاً منذ الصباح ، فلونك الأخضر
الطبيعي قد تحول إلى رمادي خالص . أجل ، ضع إجازتك على ضفة النهر ،
ثم تناول العشاء » .

دخل التماسح في صراع نفسي - إذ بلغت رغبته في الأكل أوجها - أدى
به أن يلشغ أخيراً بشق النفس : « لا ، والله لا ، سوف تسرقها القردة وهي
على الضفة » .

« ابصقها إذاً » ، قال له التماسح الشاب بلا حياء : « فهاذا تفيدك
الإجازة ؟ إذا كانت الإجازة أن يحملها صاحبها باستمرار في فمه فمن الأفضل
أن يستغني عنها لأنها تمنعه عن الطعام وعندئذ يصبح فريسة للآخرين
الضاحكين عليه » .

هذه هي سنة الحياة ، وغني عن القول إنها تخص جنس التماسيح
لا غير .



<http://Archivebeta.Sakhril.com>

استمر التماسح بلا حركة . لقد احتفظ بالإجازة في فمه وحقق إلى ابن
عمه بشراسة ونهم . وتابع الأخير : « إذا كنت تفضل أن تملك بإجازتك في
القم فلعلك تسمح لي أن أتناول كفك الخلفية تحلية » .

تقلب التماسح من جهة إلى أخرى لشدة الخوف والغضب فإذا به يتطلع
في حالة الانفعال إجازته . ولا يلبث أن يشعر بغثيان شديد لم يشعر بمثله طوال
عمره ، وفي نوبة من الغيوبة العميقة سارمع التيارات في الحين هجم عليه
التماسح الشاب ليلتهمهم بمشاركة بعض الأقرباء الآخرين المتعاطفين . وهنا
تنتهي هذه القصة الحزينة .

* * *

الغنم الأزرق

للكاتب السوفيتي: ايفجن غتسالو

ترجمة: صلاح الدين مقداد

إيفجن غتسالو كاتب أوكراني في الثالثة والثلاثين من عمره . اقتفى ، في البداية ، نهج أبيه ، الذي كان يعمل معلماً في قرية ، من إقليم فينسا ، فتنخرج من كلية تدريب المعلمين . ولم تمر فترة طويلة ، حتى تأكد أنه يتوق ، في الحقيقة ، ليكون كاتباً ؛ لا سيما أن الكتابة ذات صلة متينة بالتعليم . ألا يعلم الأدب الناس كيف يمكنهم تذوق الجمال ؟

طبع أول كتابه ، تضمن قصصه ، منذ اثنتين وعشرين سنة ، تحت عنوان (الناس بين الناس) ، ثم صدر (تفاح من بستان خريفي) عام ١٩٦٤ ؛ و (الرعد المتأخر) عام ١٩٦٧ ؛ و (كلافاملكة القراصنة) عام ١٩٦٨ ؛ وبمجموعة قصص أخرى .

يقترّب نشر غتسالو من الشعر ، على نحو ملحوظ ، مما طبعه بالدفء الزاخر ؛ وجعله ، على الأخص ، نابضاً بالحياة ، وذا نوعية تصويرية أخاذة .

ولا تلاحظ وفرة للحدث في قصصه . إنه يفضل الكتابة عن الصلة بين العالم الداخلي لشخصياته ، التي غالباً ما تمثل سكان الريف ، والعالم الخارجي .

يتميز هذا الكاتب بقدرته على النفوذ إلى الجمال الخفي ، الكامن خلف

الأحداث ، العادية والمألوفة ، في الحياة اليومية ، إلى حد بعيد . وتنوع قصصه ، من خلال تنوع الشخصيات ؛ فبعضها يعتبر رسماً فيثاريّاً مصغراً للواقع ، والأخر دراسات نفسية . وبعضها مجرد قصص قصيرة عادية وله أيضاً مقالات ، وصور وصفية أدبية . .

الغنم الأزرق

كان يقع خلف الكوخ حقل كبير ، يبدو أبيض في الشتاء ، قائماً في الخريف ، أزرق ضبابياً داكناً في الربيع . لكنه يفتح حضنه أثناء الصيف ، لتتأمل سنابله ، برشاقة ، مرسلّة تموجاتها الناعمة ، مع لحن الحفيف العذب ، فيطفوزيد متقد أصهب ؛ بينما تداعب الشمس أعرافها برقة ، باعثة فيها النضج . وما إن يحل الظلام حتى يستغرق الحقل ، مثل طفل ، في سبات عميق ، يسكب القمر المنجلي على وجنتيه ، شفافية مبهمة . وتلتصع ومضة هادئة شهباء في أحاديده ، وصفراء زيتية على هاماته . بماذا يحلم الحقل وهو يرقد هناك ؟ هل يحلم بالقمر السامق ، الذي يداعبه بغزال لا ينقطع ؟ أو بالحياد ، وهي تنطلق ، طاوية الأرض ، في غابر العصور ؟ أم بأخر كلمات الفرسان المحتضرة ، التي تحولت ، منذ أمد ، إلى همس ينساب في الأذن ، أو إلى أغنية ريح شفافة ؟ أم هل يحلم بالغد ، والظلال تكسو صدره ، على لحن ذاك الحفيف العذب ، وقد أحيطت ببحيرات أشعة الشمس الريانة ؟

تمكن (تمثّل) ، وهو أصغر ابن لحداد القرية . أن يقضي ساعات طوالاً ، يقلب ناظره عبر ذلك المنحى ، من نافذته التي تطل على الطريق المؤدية إلى ذلك الحقل . آه . . تم العثور على ما يصبو إليه . إنها تقع على مسافة منه . ها هي تدور بعنف ، وتلتف وتدنو متدحرجة ، وتراقص قليلاً :

إنها دوامة الريح . تثير النقع ، وتعصف بالقش وأوراق الشجر ، وتكبر ، وتتسع . ها هي تقترب الآن من الكوخ ، وتحجب المشهد الخلاب ، فليس ثمة حقل أوسماء . لقد غزت القرية ، وازداد اتساعها ، وعلوها ، ثم انفجرت مثل فقاعة ، مغلقة ، في الوسط ، سويقات نباتية ، قليلة ، مرتعشة ، وريشة اوز وحيدة . وعادت السكينة ، إلى الطريق مجدداً . كما بدا كل شيء خامداً ، ومنزويماً . وعندما تلاشت ، داخل نبات الجاورس ، كان يسترها سديم باهت ، ضارب إلى الزرقة .

قالت له أمه : إياك أن تنظر إلى دوامة الريح .

- لماذا لا أفعل ذلك ؟

- لأنني هكذا أقول . لا تحاول أن تفتح واحدة منها أبداً .

- لماذا ؟

- لأنها ستفك وتعملك بعيداً .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- إلى أين ؟

- كلا . ذلك أكثر مما يمكنني الإجابة عليه . لكن ربها إلى السماء . !!

انسسل (تمس) من الكوخ ، وجرى نحو مكان السويقات ، التي ما زالت ترتعش . ربها لم تضمحل الدوامة تماماً . قد تكون مستلقية لتنال قسطاً من الراحة ، كلا ، لا شيء يدور ، وعلى نحو مفاجيء بدأ شيء ما ، بجانب منزل دوماشا ، يتخذ شكلاً لولياً ، ويضطرب ، ويرتعش ، إنها دوامة تنبثق من جديد . لم تندفع بعد ، بل ما زالت تستجمع شدتها ، ركض الولد حتى أحس برأسه يوشك على الانفجار ، ثم قال مخاطباً نفسه :

- ليتها لم تبعد !

بيد أن هذا ما وقع . استهلت اندفاعها واحتياجها باعتدال . ثم بشدة

أقوى مكتبتها من القفز إلى الطريق ؛ فكادت أن ترفع الحصان والعربة ،
ونمست بالعجل . تبعها الولد بأقصى سرعته . كان سيلحق بها . لكنها
وثبت ، خلال لحظة ، نحو قطع من الأرض ، المزروعة خضاراً ، حيث لفظت
أنفاسها بين الأبنية ، مغلفة قطعة ورق ، منفردة ، استمرت ترفرف في الهواء ،
حتى سقطت في الماء أخيراً .

رأى تمش ، مرة أخرى ، شيئاً ما ، نابضاً بالحياة والرهبة ، يتحرك
ويهتز ، في شارع القرية ، فوق بريكات جافة ، صغيرة . عندئذ ، لم يتوان عن
الانتقال ، حالاً ، إلى المكان ، متوقعاً أنه سيدور ويكبر . فأخذ يترصد ،
واضعاً قدماً هنا وأخرى هناك ، لا بد من القبض عليها هذه المرة ، ولا ينبغي
التخلف عنها ، تضاءلت الدوامة الوليدة بضعف ، بدلاً من أن تزداد نمواً
وشدة ، ثم استكانت لفترة ، كأنها تقبع للتأكد من نجاح حيلتها . وفجأة
اندفعت بوثبة نحو الإمام ، تلتها أخرى ، وانطلقت ، وحاول أن تلحق الآن !
سأله أمه في المساء :
<http://Archivebeta.Sakhrj.com>

- أين كنت طيلة هذا الوقت ؟

- أوه . مع الأولاد .

لم يجرؤ تمش أن يفصح عن مطاردته للدوامات .

جلس تمش ينظر إلى الأفق ، فلاحظ هناك غنماً يهرول ، ويتناثر منه
صوف أزرق ، ويستنشق ضباباً ضارباً إلى الزرقة ، ثم يختفي . من أي مكان
أتى هذا الغنم ، الذي يرى قطعاً إثر قطع ، وأين يمضي جميعه ؟ وأي
حظيرة تتسع لكل هذا ؟ ليس إلا السماء فقط .

كان يتعذر سماع صوت الأغنام ، وهي تحلق متمايلة ، ثم تختفي ليظهر

غيرها ، ليحذو حذوها قصياً وموحياً بالدفء ، وتتابع أمامه هذا المشهد ، إلى أن بدا العالم كله يعج بالغنم الأزرق ، حيث غطى الحقول ، وامتد صوفه ملتفاً بين الأكواخ ، وأخذ الثغاء يملأ أذنيه بتأثيره الخلاب السرمدي . فرك تمش عينيه ليزيل عنهما هذه الرؤية ، دون جدوى ، فما زال الغنم يشابر على الهرولة ، فوق الأفق ، الواحد تلو الآخر ، وسحابة إثر سحابة ؛ بينما يتناثر الصوف الأزرق منه ، ويبعث بأنفاس ضاربة إلى الزرقة أيضاً :

- أوه .. أرجوك خذني معك !

لم يصدر عن الرجل حتى التفاتة . وانطلقت عربته من القرية ، مرة بأشجار الحور ، وسمع جلبتها تنتشر في عالم الضياء بين الحقول ، يغمرها فيض الألق اللانهائي .

ما زال الغنم يهرول ، لا يد أن أحداً ما ، غير مبال ، قد أخرجه ؛ فأصبح الآن ينعم بمسعة الحرية . هيهات أن تعيده إلى الخطيرة !

- أرجوك خذني معك !

سقطت كلمات تمش تحت العجلات ، فسحقها حوافر الجياد ، وأثحت بين ذرات التراب ، وتلاشى التماسه في الجلبة التي اضمحلت بدورها ، حينما تناءت العربة ، عن القرية ؛ بينما مدت أشجار الحور أعناقها ، وكأنها تسترق السمع :

ناشد تمش مرة أخرى :

- خذني معك !

ولكن دون مجيب .

تورد الأفق ، وأخذ يتوهج متوقداً ، وما زال الغنم يهرول في سباق دائم ، فوق متن الأفق الواهن .

تناولت الأسرة طعام العشاء تحت شجرة الكرز . وكان الأب يجلس صامتاً ، بعد عناء يوم شاق ، وعليه قميص أبيض رقيق .

سأل تمش : « ماذا كان يهرول فوق الحقول ، طيلة النهار ، على مسافة نائية نائية ؟ » .

التفت أبواه ، ورمقاه باستغراب .

ثم أضاف : « إنه نوع من الغنم ، ليس كذلك ؟ » .

قال هذا وهو غير واثق تماماً .

أجابت الأم : « إنه السراب الناجم عن الحرارة » .

قال تمش متنبهاً وكأنها أصيبت بخيبة أمل : « من سراب ؟ » .

لم ينس الأب بكلمة ، وظل غارقاً في صمته . فأوصى هذا لابنه بأنه اعترض على إجابة والدته . إذن ليس ما رآه سراباً ، بل ربما كانت قطعان غنم حقاً ، لكن ما يشيره هو : أي نوع من الغنم ذلك ؟ لكنها قد تكون دوامات أيضاً .

نصح أبواه ، بعد خروجهما ، بأن (يلزم البيت) . كما أحس بضرورة التشبث به ؛ وكان المنزل سيحلّق بعيداً ؛ أو أن أحداً ما سيسرقه . وتساءل : « هل ثمة أحد على وجه البسيطة سيقدم على سلب أبوابهم ؟ أو اختلاس العامود الذي علق عليه البصل والأواني لتجف ؟ أو يمرّ على اقتحام البوابات الكبيرة ونهبها ؟ ومهما يكن ، فإن رغبة أبويه أمر . لذلك ينبغي عليه البقاء

ومراقبة المكان . ولكن سرعان ما تسرب إليه السأم والفتور . فأرسل ناظره مع المجاز الممتد عبر الحقل .

كان الموج يرمي بثقله على نبات الجاورس ، المتشابك كالجدار ، خلف المنزل ، فيميل منحنيًا ، ثم يتخلى عنه ، فيستقيم منتصبًا ؛ عندئذ ، يرتد إليه ، ليحني هاماته ، مرة أخرى . وامتد بصره ، فشهد وشاحاً أبيض ، يطفو على متن الموج العالي ، مثل جناح طير . إنها امرأة تظهر وتختفي ، وكأنها تصارع الغرق . كانت خصل شعرها الغزيرة ، الشبيهة بالريش المتطاوّل على رأس بعض الطيور ، تشد على كتفها ، بفعل قوة الماء . ومن خلال ما أحدث حفيف الشعر من اتقاد مؤلم ، تراءت له كأغنية مفعمة بالحياة . وعندما جال بناظره نحو السماء ، رأى صقراً متربصاً ، يبحث عن ضحية . ها هو يجد ضالته ، سيقذف في الحال كرة شريرة : ستولد دوامة ! ها هي بدأت ، اندفاعاتها بالتأكيد . إنها تراقص في المكان ذاته . لا بد أنها ترغب في الانطلاق ، والالتفاف السريع ، نحو الغنم الأزرق الذي كان يهول على نحو مسعور .

اصمد أيها المنزل ، وأنتن يا نوافذ راقبن كل من يمر ، أو يقوم بزيارة ، أثناء غيابي .

« أين ستذهب ؟ » تتم شجر الجميز ، ثم همس مع شجر الحور بطريقة توحى بالتأمل ، فتوقف ثمّش ليستجلي الأمر ؛ وحينها تحقق أنه الجميز ، ليس غير ، تابع حثيثاً .

كان الدرب أخذاً للغاية ، على نحو يجعلك تجري معه إلى الأبد . ثم توقف بين السنابل ، وألقى نظرة تفقد ، إلى الوراء ، نحو البيت ، فوجده محتجباً . لكنه لاحظ أن شجر الجميز والحور ما زال يتبادل الهمس حول أمر

يهما . داس تمش ، على الارض بعنف وضرب جسمه وتحفز على كعبه ،
ثم سهل وانطلق يعدو بأقصى سرعة يملكها . استثار بذلك شجر البتولا ،
فلاحقه بعيونه البيضاء ، دون أن ينتبه تمش لهذا الاهتمام . وعلى الدرب ،
قدمت له أزهار العنبري ابتسامات زرقاء وبادلها ذلك ، وسفعت الريح دموع
توبجات نبتة خشخاش ، مزقها أثناء عدوه . وانهمر دمع أحمر من وردة أخرى ،
وبكت ثالثة ، وما زال يعدو . أما الصقر فانقض بحلق فوقه بانخفاض ، مما أثار
رعبه كثيراً . عندئذ نادى إلى الصقر مهدداً : « أنت بالتأكيد تحاول أن
تنقري . سأرد عليك بما تستحق » .

جنح الصقر مبتعداً . لا بد أن الفرع قد غملكه ، فشعر تمش بالسعادة
تغمره . ثم ناداه مرة أخرى محذراً : « إياك أن تسرق أي كتكوت أيضاً » .

مربع ذلك بسلحفاة أمريكية ، كانت تنتصب مثل عامود قصير ، عند
حافة الدرب . فلما أراه ، قزلت كالبرق على قوائمها الأربع ، وراحت تحت
السير ، بكل طاقتها ، وصلعت على الجوانب كومة تراب ، ثم اختفت .

جلس تمش القرفصاء ، عند الحفرة التي ظن أنها توارت فيها ، فلاحظ
وجود عدة آثار قربها ، وحبوب مبعثرة . وعرف أنها تكمن في الداخل عند
مدخلاتها .

قال تمش : « اخرجي أيتها السلحفاة الأمريكية ، اخرجي لأراك » .

لم يصدر أي صوت من الحفرة ، لا صرير ولا حفيف . ثم أضاف :

- « لن أجبرك على الخروج بواسطة الدخان أو الماء ، دعيني أراك
فقط » .

لكنها لم تظهر حتى طرف أنفها ، يبدو أنها خائفة :

- « أنت ساذجة .. تظنين أني أطمع بجلدك ؟ اعلمي أن لدي قبة ،
وياقة أيضاً » .

ومع أن اعتقاداً خامره بعدم وجودها إطلاقاً ، فقد تابع :

« يمتلك أبي قبة أيضاً ، لا تخافي ! » .

وتذكر أمه فقال :

« ولدى أمي جميع أنواع الشالات . ولا ترغب بلمس جلدك . أوه ،
حسناً ، لا .. لا تخرجي إن لم ترغبي ! » .

قفز بعدئذ وغادر المكان منطلقاً كالدوامة التي تكبر خلال لحظة ، ثم
تنشر أذرعتها بقوة شديدة وتندفع محلقة ، على طول الدرب وفوق بقايا
الحصاد ، مبتعدة عبر العالم الشيع ، وظل يعدو مثل دوامة صغيرة ، يغني
ويغني ، وكان شمساً تحفّق داخله ، وتوهج لتسكب لحناً عذباً .
<http://ArchiBeta.Sakhril.com>

عندما خرج تمش راقبه البيت إلى أن أصبح غير قادر على ذلك ، حيث
اختفى وراء الأشجار ، بينما واصل شجر الجميز والخور متابعته باهتمام .

كانت قطعان الغنم تهول أمامه ، قطعاً يومض إثر آخر ، في أشعة
الشمس ، وهي تنثر صوفها الأزرق ، يالها من أعداد متزايدة ! أين تذهب
جميعها ؟

أخذ تمش يشغو ، مخاطباً الغنم لعله يوقفها . حبذا لو توقف واحد منها
فقط ، وقفز بين نبات الجاورس . إنها قطعان تساق بقوة مجهولة ، ربما بتأثير
رعب خفي . ثم استأنف الثغاء ، مرة أخرى دونما جدوى .

لم تنشط الحرارة ، بعد أن وصلت درجة الإنضاج حتى التفجر .

عندئذ ، شعربها تف يقول : انتبه . يمكنك سماع الإحساس بلذعات أشعة الشمس الحارة ؛ وسماع الصمت العميق في صيف ساخن ؛ إنها حاول أن ترسم في مخيلتك رموزاً مماثلة للبرد ، فإنك لن تستطيع . واعلم أنه ستظل تهب على مر الأيام لفحة ريح حارة ، ثم تضحل ، كأنها لم تكن . هذا كل ما في الأمر .

انتصب تمس لمدة لحظة ، وتابع العدو وتوارى بعيداً ، مثل دوامة صغيرة ، اندفعت مع الدرب ، إنه سينشر جناحيه ، ويخلق وهو يثغو مسروراً :

- با .. با .. با .. با ..

عن مجلة : Soviet Literature



لقطات من رحلة ثقافية إلى الاتحاد السوفييتي

٩ / ١٢ / ١٩٨٤ • د. حسام الخطيب

بدعوة من الرفيق

نيقولاي فدرنكو ، رئيس تحرير (الآداب الأجنبية انسترايا
لتراتورا) ، في موسكو قام الدكتور حسام الخطيب ، رئيس تحرير
(الآداب الأجنبية) وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب
بزيارة ثقافية إلى الاتحاد السوفييتي من ٩ - ١٩ كانون الأول عام
١٩٨٤ .

ويقدم الدكتور الخطيب هنا بعض لقطات من رحلته الممتعة
والمهمة إلى موسكو وكيف .

١ - من المطار إلى البرنامج

منطقة مطار موسكو بحر ثلجي أبيض (غير متوسط) ، ولكن تتوسطه
جزيرة من الأبنية يفترض أن تكون أبنية الإدارة . تقرب الطائرة من البياض
الناصع الفسيح المشع ليس بالبرد حتماً ، ولكن بالبراءة .

كيف ستحط الطائرة في هذا البحر الثلجي ؟ وكيف يستطيع الطيار أن يتبين سمت المدرج ؟

وهل هو ماهر بما فيه الكفاية ؟ إن هذه الأسئلة كانت ترد على كل شفة وكل لسان في قلب الطائرة غير المكتظة بالركاب . ومن قريب يبين أسطول كاسحات الثلج في مطار موسكو .

وبعد لأي يتبين المرء أن هناك بشراً يتحركون كالمتعاد وكما يحدث في كل المطارات ، ويتضح تماماً أن هطول الثلج (غير الكثيف) لا يعني عندهم الشيء الكثير . المهم أن الطائرة تنساب بهدوء وروية . . وتدرج وتدرج (taxi) إلى أن تبلغ خرطوم المطار رقم ٢١ بعد أن تكون قد قطعت على أرض المطار سفرة غير هينة .

بعد هنيئة تسلم جوازك لرجل أمن شاب يجلس عند حاجز الجوازات داخل كشك صغير وعند الطرف الآخر من الحاجز يقف المستقبلون الثلاثة من السوفييت . رجلان وامرأة . يسلمون عليك ويبدئون بفتح موضوعات مثيرة والجواز ما زال بيد الجندي الشاب . يلفت نظرك أن المستقبلين (الذين تلقاهم لأول مرة) يكلمونك بطلاقة . تشوّق لأن تتجاوز الحاجز لترد عليهم التحية بأحسن منها . تستدير إلى حيث يظهر رأس الجندي من وراء الدفة العريضة التي تتصدّر كوثه التي يجلس فيها .

بدلاً من أن يسلمك الجواز المختوم ، ينظر إليك بتفحص . وتنضمّ إلى عينييه المحدثتين عينا زميل له إلى جانبه . وتحسّ أنك تحت أشعة ليزر لعيون أربع خُزر تحاول أن تخترق الحجب تنظر العيون في الصورة المثبتة على الجواز ، ثم تمسح وجهك وجسمك برشقات استطلاعية محكمة . وتقول المستقبلية السوفييتية : « إنه جندي شاب يجرب فرصته ، لا عليك . . . »

وتطول المسألة . . . بالطبع ليس من قلق فأنت في دعوة صداقة وأوراقك
سليمة مثل مسك (القيمرية) المرحومة . ونخطر لك :

أنهم موجودون في كل مكان أولئك (المسؤ ولون) عن أمن المواطن
والمكلفون بإيقاظ إنسان هذا العصر من حلم كل سفر . وتذكر مقالاً قرأته منذ
أكثر من شهرين للروائي البريطاني (فرانسيس كنج Francis King) في جريدة
(الغارديان / ٣٠ ايلول ١٩٨٤) . . . وقف فرنسيس كنج الوقفة نفسها ،
ولكن ذاك كانت له مشكلته . فصورة جوازه ، كما يقول ، محلاة بشارين ،
ووجهه إذ ذاك كان عاطلاً حليقاً ، وحرار الجندي الشاب والتجأ إلى الرتب
الأعلى ، وأخيراً قبل شهادة المرافقة السوفيتية . ولكن أنت منذ زمن حلقت
الشاربين إلى غير رجعة . . . منذ عام ١٩٦٧ حين رأيت على التلفاز ، في بلد
أوروبي ، صور آلاف الأسرى العرب في حرب حزيران ، قسماهم كلها
هزيمة ، وقاسمهم المشترك هو الشاربين .

وتلقت إلى مضيفتك السوفيتية أولغا ، وتطلب إليها في قلبك أن تقوم
بدور مثيل للدور الذي قامت به زميلتها مع فرانسيس كنج قبل شهرين في
المطار . . . وكأنها تتلقى الرسالة روحياً فتقول للجندي الشاب شيئاً بالروسية
لا تستطيع أنت أن تحمن مضمونه . . . وتبتسم الفتاة وتنضحك أن تتذرع
بالصبر أو تتحلى به .

وأخيراً وبعد لأي ، أولاًين ، يطلق الجندي الخاتم على الجواز . . ولا
تستغرب ما حدث فذلك يحدث في أحسن العائلات (هل يجب أن تقول /
الأسر) بضم الهمزة لتكون جمع أسرة . ساعونا هذه المرة فقط لأنه مثل
شائع . !!

وتتذكر كيف علق فرانسيس كنج على هذه الوقفة ، وكيف عمل من

الحبة قبة ، وعدّ هذه الواقعة فاتحة شؤم لزيارته ، كأنهم في بريطانيا يقولون للإنسان تفضّل ولو كانت صورتك غير مثبته على الجواز !!

فرانيس كينغ ، سنذكر مقالته بعد قليل ، لأنها بسبب هذه الوقفة ستظل على الأقل لمدة يومين كاملين مسيطرة على ذهن .

المهم أن الإجراءات الأخرى تتم بسهولة ويسر ، ومحيطك المستقبليون بمودة دافئة تنسيك التأثير النفسي - على الأقل - لذلك البحر الهادئ الأبيض المقعم بسرّه الخاص الذي تقع في قلبه جزيرة المطاريق يقولون لك : غدا نناقش البرنامج ، والبرنامج مفتوح ، ففكر وقل لنا في الصباح ما الذي يمكن أن نعدّه لك .

في فندق (سوفيتسكايا) التقليدي العريق ، ذي الأبهاء الواسعة والغرف الممتدة طولاً وعرضاً وارتفاعاً ، تحسّ أنك في كنف أحد القياصرة . تتذكر التاريخ العظيم للقارة السوفيتية وتنتظر حوليك في الفندق فتكتشف أن العبارة القديمة الشائعة ما زالت قائمة ، ولكنها الآن (مطعّمة) بكل ما هو حديث وشعبي واشتراكي ومتمدن الصلة بالحياة المعاصرة كأنهم احتفظوا بالشكل القديم ، كلما أمكن ذلك ، ولكن أبدلوا بمضمونه العتيق مضموناً جديداً يناسب يومهم وعصرهم .

ألم يفعلها كارل ماركس من قبل مع جدلية هيغل ؟ فكان الديالكتيك وكانت المادية التاريخية !! تفكر في البرنامج . منذ زمن طويل لم تزر الاتحاد السوفيتي . ما هو الثابت وما هو المتحول ما الجديد وما القديم ؟ لا تعرف . وتحشى أن يكون الأصدقاء العرب الذين تعرفهم هنا مشغولين بشيء آخر غير الثقافة ومؤسستها. تذهب في الصباح إلى مقر اتحاد الكتاب السوفيت . واضح أنك لم تهمل شيئاً . فأنت في رحلة اطلاعية ثقافية . لم يكن هناك مؤتمر ، ولا

مباحثات رسمية ولا لجان تحضيرية ، ولا بيان ختامي ، ولا مواعيد عمل ضاغطة ، وإنما هي دعوة لقاء وتعارف ومناقشة من مجلة الآداب الأجنبية عندهم (انسترانايا - لترا تورا) إلى مجلة (الآداب الأجنبية) في سورية العربية .

وتقول لهم :

ليس لي طلبات خاصة . كل ما أريده هو الحوار والمناقشة وتبادل الأفكار والاطلاع على المؤسسات ذات العلاقة بالآداب والثقافة .

بعد أن تقول هذه الجملة ببساطة وبالجمل لا بالفرق ، ينظرون إليك بشفقة وهزون رؤوسهم ، ولو كانوا يعرفون عادة ثني أصابع اليد وهزها على سبيل التهديد لفعلوا . ولكنهم يقولون بهدوء :

طيب .. سنتركك .

http://Archive.org/details/Saklat
وتنهال الاقتراحات وتكتمل البرنامج :

فيدورنكو ، الآداب الأجنبية ، مجلة (مسائل الأدب) ، مجلة (الصداقة بين الشعوب) ، مجلة (الأدب السوفييتي باللغات الأجنبية) ، دار نشر (الكتاب السوفييتي) ، معهد الأدب العالمي في جامعة موسكو ، معهد غوركي للأدب ، وغيره وغيره . أما المتاحف : غوركي ، وبوشكين ، ولينين وغيره . وقبل كل ذلك معرض للرسم السوفييتي .

كل من في المؤسسات يقول لك :

- تفضل . أسهم معنا بالطريقة التي تشاء ، نريد أن نعرف المزيد عن الأدب العربي ، وعن الثقافة في سورية ، وعن اتحاد الكتاب لديكم ، وعن أفكاركم .. هذا يريد مقالاً في عشر صفحات ، وذاك في خمس عشرة

صفحة . وآخر يريد مراسلة دائمة .

وترفع رأسك لتتنفس الصعداء ، ولسان حالك يقول : هؤلاء القوم لا مجال للمزاح معهم العمل هو الشيء الذي يريدون .

٢ - آداب أجنبية وترجمة وانفتاح

- الآداب الأجنبية والانفتاح .

- رؤية انكليزية غريبة - ضرورة التفريق بين الغزو الثقافي وبين الانفتاح - الترجمة تخلق تربة خصبة للإبداع الإنساني .

لقاءات كثيرة مثمرة عقدتها مع هيئة تحرير المجلتين السوفييتيتين للآداب الأجنبية (إنستراينا المترانورا) في موسكو و (فسيفسيت - العالم) التي تصدر بالأوكرانية في كييف (واللغة الأوكرانية تختلف نسبياً عن اللغة الروسية ولها آدابها الخاصة) .

وقد تبين لي أن سياسة نشر الآداب الأجنبية في الاتحاد السوفييتي تضع الانفتاح شعاراً لها ، وتبته أكثر فأكثر إلى تغليب معيار الجودة والإبداع على أي معيار آخر ، هناك ثقة عامة بأن الأدب الجيد لا بد أن يكون دافعاً من دوافع العمل والتقدم والقوة والتفاهم الإنساني .

ومن المعروف أن المجلة الموسكوفية للآداب الأجنبية التي تصدر شهرياً تطبع ٥٢٥ ألف نسخة ويبلغ عدد صفحاتها ٢٧٢ صفحة من القطع الكبير ، وتضم ترجمات من آداب مختلف الشعوب بما في ذلك شعوب صغيرة منسية في زوايا أوروبا وآسيا وأفريقيا وغيرها . وتتنوع هذه الترجمات بين مقالة وشعر وقصة

وأخبار أدبية وتعليقات . كما تنشر هذه المجلة شهرياً عملاً أدبياً كاملاً في شكل كتاب جيب يطبع منه (٢٠٠ - ٢٥٠ ألف نسخة) . ومن بين الروايات العربية التي أنجز طبعها بالروسية رواية الكاتب العربي الفلسطيني يحيى مخلف ، كما ينتظر أن تنجز طباعة رواية (صخرة الجولان) للكاتب العربي السوري علي عقله عرسان . وتكاد قائمة الأعمال الأدبية التي نشرتها المجلة تشمل معظم البلدان العربية ، وهناك جهود مثمرة لانتقاء أفضل النتاج الأدبي العربي وترجمته ، مع عناية خاصة بالأدب العربي في سورية وتنحو المجلة الأوكرانية (فسييفيت) المنحى نفسه ، ويبلغ توزيعها ٥٣ ألف نسخة . ومن الأعمال الأدبية العربية التي تعزّز المجلة بنشرها رواية (غرس الزين) للكاتب العربي السوداني الطيب صالح . وقد وجدت لدى هيئة تحرير هذه المجلة حماسة ممتازة لنشر الأدب العربي وفي الاجتماع المطول الذي عقدته مع الزملاء المسؤولين عن أقسام المجلة في كيف بتاريخ ١٥ / ١٢ / ٨٤ ، بدأ الاهتمام بالتتاج الأدبي في سورية واضحاً جداً ، وكانت في يد الزميل أوليغ ميكييتنكو رئيس التحرير المساعد ، قائمة بأسماء عدد كبير من كتاب القصة في سورية ، وكان ميكييتنكو حريصاً جداً على حسن الانتقاء ، لأسباب موضوعية تتعلق بعمق التزامه بعمله ، ولأسباب شخصية أيضاً ، إذ أنه زار القطر العربي السوري قبل شهور ، وعقد صداقات طيبة مع معظم الكتاب الذين التقى بهم ، وما زال عقب دمشق يؤنس فيه الحب والخنين لسورية . والجدير بالذكر أن ابنه يفجيني مستعرب ، وقد نشر هذا العام ١٩٨٤ مختارات مترجمة عن ألف ليلة وليلة ، ولو كان المجال مجال مذكرات مفصلة لأفضت في الحديث عن حب ميكييتنكو لسورية والعرب ، وعن سباحته وتفتحته ووفائه ، ولكن ذلك له وجهة أخرى أرجو أن تسمح لي الظروف بطرقها في قابل من المناسبات .

إن سياسة النشر السوفييتية ذكّرتني بما يجري الحديث عنه في الميدان

وتخطر للإنسان في هذا الصدد خواطر كثيرة من أبرزها أنه في حين ينبغي أن نستمر في إثارة موضوع الغزو الثقافي وتوظيف إمكاناتنا المختلفة لمواجهته ، علينا ألا نسمح أبداً بأن تتخذ هذه الوقاية من الغزو ذريعة للانغلاق أو التقوقع أو التجمد أو الانكفاء المريض على الماضي أو الاختصار على وصفات فكرية مقننة .

ذلك أننا نعيش في قرن من تاريخ العالم أصبح فيه المناخ الثقافي العالمي حقيقة واقعة ومكوناً من مكونات الثقافة المعاصرة لأي شعب حي ، ولا بد لنا من التفريق الواعي بين الغزو الثقافي والانفتاح الثقافي .

وإذا لم نحدد ذلك بوضوح يُخشى أن يكون كالمئب ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

مسألة أخرى أثارها في النفس تجربة الانفتاح الثقافي الذي رأيته في الاتحاد السوفييتي وهي صورة (الستار الحديدي) الذي ما زالت الصحافة الغربية تحاول تثبيتها في النفوس . إنني لا أتحدث هنا من قبيل الدفاع عن الاتحاد السوفييتي أو مهاجمة الصحافة الغربية ، فالمعركة الإعلامية بين الطرفين أضخم بكثير من أن تزج فيها ملاحظة عابرة . وإنما أود أن أتمنى على بعض الكتاب الذين يكتبون في صحف غربية ذات وزن أن يراعوا الصدق فيما يقدمونه لقرائهم من مادة حول بلدان العالم ، كنا نحن العرب دائماً بعض ضحاياها .

الثقافي العربي هذه الأيام من ضرورة مقاومة الغزو الثقافي .

فمثلاً ، مقالة فرانسيس كنج التي أشرت إليها في مطلع حديثي عن رحلة موسكو تشير في الذهن أسئلة كثيرة . فما هو وفد من الروائيين الإنكليز يقصد الاتحاد السوفييتي بدعوة منظمة (ماثيو ايفانز ، مارغريت درابل ، في ولدون ، جني ارميتاج ، مايكل هولرويد ، بنيلوب ليفلي) . بعد العودة ينشر فرانسيس كنج تقريراً في صفحة كاملة من الغارديان البريطانية (٣٠ / ٩ / ١٩٨٤) يفقد فيها الإنسان أية مادة معقولة بل أية روح طيبة تجاه عالم الآخرين . تتحدث المقالة أولاً عن وقفة المطار على نحو ما ذكرنا في مطلع هذا العرض ، ولكن بطريقة لا تخلو من استفزاز . وماذا بعد ؟ كل ما في الرحلة أنه ثبت للفريق الزائر أن حقائبهم قُتشت في الفندق . كيف ؟ إن كاتب المقال اكتشف أن غطاء زجاجة مكسور ، لأن الذي حاول فتحه لم يلاحظ ضرورة مراعاة تحريك الغطاء وفقاً لأسهم متعارضة مرسومة على الغطاء ؟؟ وهناك شيء آخر . في أوديسة ، الميناء الجميل على البحر الأسود ، كان الفريق الإنكليزي يستمتع بالتزّه خارج الفندق . وقد حدث في مرتين اثنتين أن اقترب من كاتب المقالة شخص غامض وحاول تبادل الحديث معه ، ولكن كان يختفي بسرعة ؟؟ وقد حزن فرانسيس كنج لأن ظروفه لم تسمح له بدعوة هذا الشخص الغامض إلى كأس في بار الفندق ، (كما يفعل الناس في أي بلد آخر في العالم) وعلى حد قوله .

وهذا هو مجمل مضمون التقرير ، ويغلفه كنج بطابع من الغموض المتعمد أو (التغميض) لجعل منه مادة إعلامية مثيرة لا أكثر ، ونحن نعرف كيف يكتب هؤلاء عن بلادنا وعن غيرها . ونتمنى أن تصل موجة الانفتاح الثقافي العالمي إليهم أيضاً ، وهم الذين يعتقدون أنهم الأكثر انفتاحاً وتحرراً . بقي أخيراً أن ألاحظ أن الترجمة منتعشة جداً في الاتحاد السوفييتي ، ربما

أكثر من أي بلد آخر في الدنيا . إن سياسة نشر الآداب الأجنبية ليست العامل الوحيد في تنشيط الترجمة بل هناك عملية ترجمة ناشطة جداً بين لغات القوميات المختلفة . وكل إنسان قابلته في الوسط الأدبي في موسكو وكيف حدثني عن الترجمة وعن إسهامه فيها .

ويبدو أن الترجمة فرض عين على كل مثقف أو مثقفة هناك . وتسهم الترجمة ، كما هو متوقع ، في بناء أرضية إنسانية غنية يترعرع فيها الإنتاج الأدبي ويزهر ويثمر .

٣ - الأدب وأنسنة السياسة

- ما أحوج السياسة إلى الأدب والأدب إلى السياسة .
- المنطقة العربية كانت دائماً منطقة انفتاح ، فلماذا لا تقدم الإمكانيات اللازمة لأدوات هذا الانفتاح .
- أربعون محرراً مقابل واحد ، ويتحدثون عن التعاون المتكافئ ؟
- الاتصال بآداب العالم ضماناً لإبقاء عملية الإبداع متجددة وبعيدة عن الجمود والتكرار .

في ١٣ / ١٢ / ١٩٨٤ كان الموعد الوحيد الذي لم أوفق في الالتزام به هو موعد اللقاء مع فيدرونكو ، السكرتير العام لاتحاد الكتاب السوفييت ورئيس تحرير مجلة (الآداب الأجنبية) السوفييتية . وهو تقريباً أهم موعد من الناحية الرسمية بالنسبة لطبيعة زيارتي للاتحاد السوفييتي .

فمنذ الصباح تتابع علي ذلك النوع من الملابس الذي يحدث عادة حينها تكون لدى الإنسان اهتمامات ذات نوع خاص فتجري بعكس ما تشتهي السفن . فكان المقادير تداعب الإنسان ولو من خلال التفاصيل الصغيرة .

وعلى أي حال ، بعد نصف ساعة من الموعد المحدد دخلت بنا السيارة باحة اتحاد الكتاب السوفيتية وهي مغطاة بالثلج والجليد ، فكانها ببياضها سوداء على حد قول أبي الطيب المتنبي .

دخلنا واعتذرنا جداً جداً . وكان اللقاء حاراً ، وكان مع فدرنكو السيد الكساندر كوسوروكوف ، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في اتحاد الكتاب السوفيت . وتحدثنا عن مجلتي (الآداب الأجنبية - انستراتايا لتراتورا) في الاتحاد السوفيتي وعن مجلتنا في سورية .

وبحثنا في بعض الخطط المشتركة وحاولنا تثبيت آفاق التعاون . وأبدى الجانب السوفيتي استعداده لكل تعاون ومن أي نوع . (بالطبع يرجى من القارئ الفطين أن يلاحظ أن كلمة تعاون غير مستعملة هنا في ما وضعت له أصلاً ، وأنها في حالات كثيرة تتخذ طابع التورية) .

على أي حال ، برزت المشكلة حين انتقلنا من العام إلى الخاص . كيف (تتعاون) أقسام المجلتين ومختلف الاختصاصات فيهما . وغصّ حلقي وحاولت المواربة ، ولكن أمام النقاط الملموسة التي أقيت على طاولة البحث (لا بساطي) وجدت أنه لا بدّ من الاعتراف بالحقيقة المرة .

في هذه المرحلة من التعاون ، أيها الأصدقاء لا بد من إبقاء العملية في مستوى الخطوط العامة لأنه ليس لدينا أجهزة نظرية لأجهزكم في (الآداب الأجنبية) . فمقابل العدد الكبير من المتفرغين لديكم من أقسام المجلة (أظنه يقارب الأربعين) ليس في مجلتنا أي متفرغ بما في ذلك رئيس التحرير .

ونحن مجرد جسم طفيلي يعيش على سطح اتحاد الكتاب العرب وجهازه .
ولذلك نحن مضطرون أن نبقي في حدود مجلة فصلية انتقائية ، ويصعب أن
نتحدث معكم عن خطط نوعية للتعاون ، كالتعاون الخاص في مجال الأدب
الآسيوي الأفريقي ، أو في مجال الكتاب الشهري الكامل الذي يصدر عن
مجلتكم .

* * *

أشياء كثيرة كانت تخطر لي حين كان الجانب السوفييتي يرد على
ملاحظاتني بتأكيد الاستعداد للتجارب مع أي مستوى من التعاون نريده .

شيء واحد فقط أود أن أذكره هنا . نحن العرب أبناء منطقة كانت
منفتحة دائماً للرياح الثقافية المختلفة ولم يحدث إلا في فترات الاحتلال الأجنبي
أن أغلقت الأسوار في وجه ثورات القوايح الإنسانية . كانت هذه المنطقة دائماً
ترسل وتتلقي وتتوسط أيضاً . وكانت مراهنتها الدائمة إلى جانب قضية الثقافة
الإنسانية الحية المتفتحة . فلماذا يسبقنا الكثيرون إلى تطوير أجهزتهم المعنية
بالتبادل الثقافي ولماذا تبقى مجلة مثل (الأدب الأجنبية) في الحدود الدنيا من
الإمكانات .

إن القارئ العربي في سورية وفي غيرها من البلاد العربية يبدي أعظم اهتمام
بما تبذره المواهب الإنسانية في كل مكان من العالم ، وأين نحن من التجارب
مع اهتمامه ؟

* * *

وتركنا التفاصيل وانتقلنا إلى الأحاديث العامة ، وقادنا الحديث إلى
الدور الذي لعبه فيدرنكو في الدفاع عن الحق العربي حين كان مندوباً للاتحاد

السوفييتي في مجلس الأمن الدولي ، وهيئة الأمم المتحدة ، وتنهّد الصديق بعمق
وكان مما قاله :

« أتصور لو أن هؤلاء العرب الذين يفوق عددهم مئة مليون كانوا
موحدين ، كيف تكون قوتهم ، مشكلتنا دائماً هي التمزق العربي » .

ونحن نسمع هذه المناقشة دائماً في الشرق والغرب ، ولدى جميع الذين
يتفهمون قضيتنا ، إنهم جميعاً متأكدون أن العرب يشكلون قوة كبرى حين
تتضافر جهودهم ، ولو من خلال الحق الأدنى .

وقادنا الحديث إلى جهود فيدرنكو في حقلي الأدب الصيني والأدب
الياباني . وأبدي سروره حين أخبرته أن العدد الجديد من مجلتنا (الآداب
الأجنبية) بحمل مراجعة لكتابه عن (كاواباتا ياسوناري) ، ثم أعطاني كتاباً
من تأليفه فيه مقالات عن الأدب الصيني وأباح لنا أن نترجم منه أو نقدم
مراجعة عنه ، واسم هذا الكتاب (التراث الأدبي الصيني والمعاصرة) ،
موسكو ١٩٨١ .

وقال لي : إن موسكو باردة ، ونحن نحب الثلج وتنضايق حين يكون
هناك حر ، ربما على عكسكم تماماً . وقلت له : المهم هو مقدرة هذا الإنسان
القوي الضعيف على التكيف مع مختلف الظروف من طبيعية واقتصادية
وغيرها . وخشيت أن يفهم أنني أبذل جهداً للتكيف مع طبيعة موسكو ،
فأردفت :

- إن موسكو باردة من الخارج فقط ، أما من الداخل فهي دافئة .

قال فيدرنكو :

- سري أنك اكتشفت ذلك بسرعة .

وكان وداعنا حاراً مثلها كان اللقاء .

وقلت في نفسي :

- ما أجل أن تتعانق إنسانية الأدب مع دينامية العمل السياسي . إن نيكولاي فيدرنكو صورة حية لهذا العناق ، ويا حبذا لو كثر أمثاله لدينا ولدى غيرنا ، إذاً لكان وضع الأدب أفضل ، وربما وضع السياسة أفضل أيضاً إن كان لوضعها من شفاء .

درس آخر خرجت به من مجمل تجربة مجلة (الآداب الأجنبية) في موسكو . مفاده أن أي أدب - مهما كان عظيماً أو عريقاً أو خصباً - لا بد له من التفاعل مع آداب الأمم الأخرى والتلاقح معها . وليس في ذلك ضمانة لحيوية معايير التذوق فحسب بل ضمانة أيضاً لإبقاء عملية الإبداع متجددة ومتحررة من الجمود والتكرار

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

٤ - في مجلة (مسائل الأدب)

- أفضل مكان للتفكير ليس الغرف المتأنقة والمكاتب الوثيرة .
- إن الذي يريد أن يفكر ويبدع غير الذي يريد أن يأمر وينهي .
- الأيديولوجيا ليست سيفاً مسلطاً على الفكر والفن والأدب وإنما هي وعاء مرن ومؤثر عمل وضمانة لعدم التسبب .
- لازارف وصدقي إسماعيل ، يخلق من الشبه أربعين .

في الطابق الحادي عشر من بناء قديم ، كله إصلاحات وتعديلات وترقيعات ، بعضها مما لا يصلحه عطار ولا يعيد إليه الشباب نافخ نار ، في هذا

الطابق الذي يصل إليه الإنسان عن طريق مصعدين يكمل أحدهما الآخر ، كما يكمل (القاموس المحيط) شرح (تاج العروس) ، يقع بناء مجلة من أهم المجالات في العالم الأدبي وهي مجلة (مسائل الأدب) . مررنا من خلال الدهاليز ، والأبواب القديمة ، والأروقة غير العريضة ، دع عنك المصعد الذي يتنفس الصعداء كلما تجاوز طابقاً إلى طابق آخر ، أو طبقاً إلى طبق ، كما ينبغي أن نقول بلغة الأوائل . وفي أثناء ذلك كان يخطر لي خاطران أن يتناوبان على مساحة الوعي ومحجبان عني فرصة التفكير فيما ينبغي عليّ أن أقوله في هذا اللقاء الذي تهيئته أكثر من لقاء (الكبار) و (المسؤولين) و (ذوي الرتب) :

الخاطر الأول : أن مجلة تبحث في (مسائل الأدب) المتعرجة وفي (نظريات النقد الأدبي) المتشابكة ، وفي (مصير التنظير الأدبي) ودوره غير الواضح ، لا بد أن تكون في مثل هذا المكان الغريب الذي يحمل طابع العزلة ، ويساعد على الانقطاع للتفكير والنظر والتأمل .

الخاطر الثاني : أن أفضل مكان للتفكير السليم ليس المكاتب الأنيقة والغرف المجهزة بأحدث المفروشات وبأجمل أشكال الهواتف . إن الذي يريد أن يفكر غير الذي يريد أن يأمر وينهي . ومن أسف أن كل الحجج التي تقدم عندنا للاعتذار عن ضالة ما يجري من تفكير هي من نوع أن المكتب غير مجهز ، وأن الطاولة صغيرة وأن الهاتف غير شغال . وقد تكررت في ذهني هذه الحاضرة عدة مرات ، حين كنت أدخل مكاتب مجلة (الآداب الأجنبية) السوفييتية ، أو اتحاد الكتاب السوفييت أو غير ذلك . وكثيراً ما تذكرت إذ ذاك مركز أبحاث الشرق الأوسط في جامعة كامبردج الذي يقبع في حارة عتيقة وفي مبنى صغير لا يكاد يملأ العين ، شأنه في ذلك شأن أبنية كثيرة للمعاهد والمكتبات والدوائر في كل مكان من بلدان العالم التي تفكر ، كما كنت أتذكر دائماً دهاليز محكمة فرانز كافكا الغريبة .

على أية حال ، دخلنا إدارة المجلة . كان كل شيء بسيطاً طبعياً ، كان المرء في منزل عتيق لشاعر لا يبالي بالمظاهر . وجلسنا مع رئيس التحرير ومساعدتي اللطيفتين ، بعدئذ انضم إلينا أحد المختصين في الأدب الأمريكي في قسم الآداب الأجنبية في كلية اللغات بجامعة موسكو .

كان الحديث أصيلاً وعميقاً وثيقاً وبعيداً عن الشكليات . وتبين لي كما حدث في كل لقاءاتي ، أن الفكر في الاتحاد السوفيتي يتجه إلى التفتح أكثر فأكثر ، وأن مسائل النظرية الأدبية تعالج من خلال أحدث معطيات الفكر الأدبي في الغرب والشرق ، وأنه لا توجد هناك محرمات في مجال الإبداع ، وأن هناك سعياً جاداً لثلاث تكون الأيديولوجيا سيقاً مسلطاً على الفكر والفن والأدب ، فهي عند الكثيرين ولا سيما من الفئات الشابة المتطلعة - وعاء مرن ومؤشرات عمل وضمانة لعدم التسبب في مجال كل ما فيه يغري بالتسبب ويشد الإنسان من موجة إلى موجة .

وتبين لي - كما كنت ألتوقع - أن مشكلة العلاقة بين النظرية والإبداع ، وبين الوعي المسبق والتلقائية وبين الإعداد والفيض العفوي ، هذه المشكلة أبدية وليس لها حل ، وإن كان ممكناً تخفيف آثارها السلبية بخلق جو شبه طبيعي من التبادل والحوار والصراحة بين (حدودها) المختلفة .

كما اتضح لي أن أزمة الناقد في مواجهة الأدب وأزمة الأدب في تقبل الناقد ، ستبقى كما هو متوقع موضع أخذ ورد على المدى المنظور وغير المنظور .

وإن كانوا في الاتحاد السوفيتي - على ما فهمت قد توصلوا إلى تخفيف الحدة بين (اندفاع) الأدب و (تربصية الناقد) ، ولا سيما من خلال اللقاءات المشتركة على ملأ من جمهرة القراء الذين يشاركون في تذوق الأعمال الأدبية وانتقادها وتقييمها ، والذين يحسب لهم المؤلفون أكبر حساب .

وحين رويت لهم جوانب من انتفاضيات الأدباء عندنا في وجه النقد ،
وحين ذكرتهم بما يجري أيضاً خارج حدود بلادنا من إنكار لدور النقد في
الأوساط الأدبية (ذكرتهم مثلاً بالمقالة المعروفة عن وليم فوكنر التي تحمل العنوان
المثير التالي : (كاتب كبير رغم أنف النقد) ، حين ذكرت ذلك أفادوا - كما هو
متوقع - أنهم يشعرون جيداً بخطورة هذه المشكلة ، ولكنهم يعالجونها بروح
طيبة ، وهم غير يائسين من النتائج .

* * *

وكانت الروح الطيبة تعطر كل كلمة تبادلنا وكل مناقشة أجريناها . وإن
أنسى - لأنسى - أن الكاتبة يفعينيا كانتوفا ، نائبة رئيس التحرير ، حين
استمعت إلى الشرح المطول الذي قدمه رئيس التحرير في الجلسة عن مجلته ،
قاطعته قائلة : « الحمد لله أنني أعرف الآن شيئاً عن هذه المجلة التي أعمل فيها
منذ أكثر من عشرين عاماً » ، فهل كانت تلك محاولة للفت نظر رئيس التحرير
المتمسك إلى أنه أصلاً في الحديث وأفاض <http://Archive.org>

ودعت هؤلاء القوم الصامتين الناطقين ، وفي نفسي لفظة لأن أبقى
معهم أطول وقت ممكن ، فمع مثلهم يحلو قراع الأفكار .

من هؤلاء يتعلم الإنسان كثيراً ، ولكن أبرز ما يتعلمه هو أن الفكر
يحتاج إلى إخلاص داخلي ، وأن أكثر ما يسمم الفكر هو التظاهرية واستعراض
العضلات .

ولا أدري لماذا حين كان يتكلم لازاريف ، كانت باصرتي ترى في وجهه
من حين لآخر هدوء وجه طالما كان حبيباً إلى النفس واليفاً ، هو وجه المرحوم
صديقي إسماعيل ، وحتى رنة صوته وسلاسة منطقته وصواب حجته ، كل ذلك
كان يذكر بصديقي في أخريات أيامه .

وحيث خرجنا من البناء المتداخل مثل تلافيف دماغ ، سألت مرافقي
السوفييتي : هل هؤلاء القوم المفكرون (منسيون) كما يوحى مقرهم في الطابق
الحادي عشر من الدار العتيقة ؟

وقال ميخائيل : بالعكس ، هؤلاء الناس محترمون ولهم تأثير ملموس ،
ولهم وزنهم المعترف به وحسابهم المحسوب .

وفيما بعد فهمت أن أهل الفكر والنظر ، ولا سيما المشتغلين بقضايا
الأيديولوجيا والتنظير الأدبي والفني والنقدي ، يحتلون مكاناً بارزاً في المجتمع
الثقافي السوفييتي ، كما أن الاهتمام بالأدب والفنون يستند إلى تاريخ عريق
يدعمه واقع اجتماعي واضح الاتجاه ، وقد قال لي محقاً أحد الأصدقاء الذين
درسوا في موسكو وتخرجوا في معهد من أرفع معاهدها : إن مكانة المفكر والمنظر
والأديب والفنان في المجتمع السوفييتي تعادل بنسبة تكثر أو تقل مكانة
التكنولوجي والمختص العلمي في مجتمع مثل المجتمع الأمريكي .

إن معرفتي المحدودة بالمجتمع السوفييتي لا تسمح لي بمزيد من التعليق
حول هذه النقطة ، ولكن هوى المرء الطبيعي أن يبقى دائماً مع تلك المجتمعات
التي لم تقدم بعد على حشر الأدب والفن والنظر في زاوية شبه معتمة ، لتفصح
بجبال الصدارة للتخصص العلمي والتكنولوجيا .

ملحق

حياة نيقولا فيدورنكو في سطور

ولد في بياتيغورسك عام ١٩١٢ ، وهو كاتب ولغوي ومستشرق وأستاذ جامعي ، وعضو مراسل في أكاديمية الاتحاد السوفييتي للعلوم ، وعضو شرف في معهد العلوم الصينية في طوكيو ، وعضو في أكاديمية فلورنسا للفنون .

عمل نائباً لوزير الخارجية السوفييتية ، ومندوباً لبلاده في هيئة الأمم ومجلس الأمن الدولي وسفيراً في عدة بلدان منها اليابان ، ويحمل رتبة مبعوث خاص .

يعمل الآن أميناً عاماً لهيئة رئاسة اتحاد الكتاب السوفييت ، ورئيس تحرير مجلة (الآداب الأجنبية) . له مؤلفات عديدة منها :

- مقالة حول الأدب الصيني الحديث ، ١٩٥٣
- الأدب الصيني ، مقالات حول تاريخ الأدب الصيني ، ١٩٥٦
- أرض الصين وأساطيرها ، ١٩٦١
- ألوان الزمن ، ملامح من الفن الصيني ، ١٩٧٢
- ملاحظات حول اليابان ، ١٩٧٤
- مشكلات دراسة الأدب الياباني ، ١٩٧٨
- الذاكرة القديمة للأدب الصيني ، ١٩٧٨
- كاواياتا ياسوناري ، ١٩٧٨

وله عدة مؤلفات أخرى وبحوث تصل في مجموعتها إلى مئتي دراسة معظمها مخصص لتاريخ الثقافة في الصين واليابان وللمسائل النظرية العامة في الأدب والفن .

أخبار أدبيّة من العالم

• إعداد: عيسى فتوح

منحت فرنسا الكاتب والروائي الإيطالي ألبرتو مورافيا وسام فيلق الشرف تقديراً لاهتمامه الدائم بشؤون الثقافة الفرنسية . والجدير بالذكر أن مورافيا قد جاوز الثمانين ، وأمد المكتبة العالمية بعشرات الروايات التي لقيت انتشاراً في كل مكان . وترجم بعضها إلى اللغة العربية مثل : السأم ، والاحتقار ، وامرأة من روما . . . كما منحه الحزب الشيوعي الإيطالي مؤخراً شرف العضوية الفخرية في الحزب ، وفي السنوات الأخيرة أعلن مورافيا اهتماماً شديداً بالثورة الفلسطينية وبمسألة الشعب العربي الفلسطيني وكان من أبرز دعاة الحق العربي في فلسطين .

فوز الشاعر التشيكي ياروسلاف سيفيرت

بجائزة نوبل للآداب

منحت الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب لعام ١٩٨٤ للشاعر التشيكي ياروسلاف سيفيرت البالغ من العمر ٨٣ عاماً تقديراً « لشعره الذي يعطي الإنسانية الطموحة على اختلافها صورة تحررية بفضل حساسيته المرهفة وخياله الواسع » .

ولد ياروسلاف سيفيرت في براغ في ٢٣ أيلول ١٩٠١ وعمل في الصحافة حتى عام ١٩٥٠ ثم تفرغ للشعر . وقد عبر في أول مؤلف له ، وهو « مدينة تبكي » الذي أهدها إلى الطبقة العاملة التشيكية ، عن تجارب شبابه بأبيات تنطوي على المضمون الاجتماعي المبسط ، وهي مستوحاة من الشعر الشعبي .

ثم اتصل بالتيارات الأدبية الحديثة ، وظهر تأثير ذلك في ديوانه « على موجات الأثير » ١٩٢٥ .

ونشر سيفيرت في الثلاثينات مؤلفات تميل إلى الكلاسيّة ، وتقرب من لهجة الأغاني المألوفة ، وانتخب بعد أحداث براغ ١٩٦٩ رئيساً لاتحاد الكتاب ، وهو التاريخ الذي طالب فيه أراغون ورومان جاكابسون بمنحه جائزة نوبل ، ولكنه لم يحصل عليها إلا مؤخراً .

ظل سيفيرت رئيساً لاتحاد الكتاب التشيكيين حتى سنة ١٩٧٢ ، وفي سنة ١٩٧٩ صدرت له مجموعة شعرية بعنوان « مظلة بيكاديلي » كما أصدر سنة ١٩٨١ مجموعة بعنوان « النصب التذكاري للطاعون » . وفي العام الماضي صدرت في براغ مذكراته بعنوان « العالم بكل جماله » ، وبعض أعماله مترجمة إلى الألمانية والإنكليزية والفرنسية . . . وسيفيرت أول تشيكي ينال جائزة نوبل للأدب منذ إنشائها سنة ١٩٠١ ، وثاني تشيكي ينال جائزة نوبل بعد مواطنه ياروسلاف هير وفسكي الذي نال جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٥٩ .

مؤتمر الشعر العالمي ودور الإبداع فيه

عقد في مدينة مراكش بالمغرب المؤتمر الدولي السابع للشعر ، وشارك فيه

شعراء من أفريقيا وآسيا وأوروبا ، حيث دار نقاش بين الشعراء والثقافات ودور الإبداع في التنمية ، والشعر في حوض البحر الأبيض . . والجدير بالذكر أن المؤتمر الأول للشعر عقد في مانيتا عاصمة الفلبين عام ١٩٦٨ ، والثاني في الصين عام ١٩٧٣ ، والثالث في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦ ، والرابع في سيؤول عاصمة كوريا الجنوبية عام ١٩٧٩ ، والخامس بسان فرانسيسكو بالولايات المتحدة عام ١٩٨١ والسادس في مدريد بإسبانيا عام ١٩٨٣ .

جوائز لوتس لعام ١٩٨٤

كرست سكرتارية رابطة كتاب آسيا وأفريقيا التي تضم أدباء أربعة عشر بلداً جلستها في موسكو لتحديد أسماء الفائزين بجوائز لوتس لعام ١٩٨٤ ، وأعلن الشاعر المصري عبد الرحمن الخميسي رئيس لجنة التحكيم عن منح جوائز الرابطة لأربعة أدباء من السنغال وأفغانستان والجزائر وسيرلانكا .

ونتح الرابطة هذه الجائزة الأدبية الدولية كل سنة ابتداء من عام ١٩٦٩ لأصحاب أفضل النتاجات التي تعكس أفكار السلام والإنسانية والصداقة والتعاون بين الشعوب . وبين الفائزين أدباء مشهورون وناشئون ، منهم الشاعر والنائب والكاتب المسرحي السنغالي جان بريبير أحد أعلام الأدب الأفريقي الآسيوي وأحد المشاركين القدماء في حركة أدباء القارتين ، وسليمان محمد لايق أحد أشهر الشعراء الأفغانين ، رجل الدولة والعلم ، وهو رئيس أكاديمية العلوم الأفغانية ووزير شؤون الأقليات القومية والقبائل . ومنحت جائزتان تشجيعيتان للشاعر والكاتب السيرلانكي كاروناتيلكا البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً ، وزميله الجزائري عمر أزراج .

السلام أمل العالم

عقد في العاصمة البلغارية (صوفيا) مؤتمر لكتاب مختلف بلدان العالم تحت شعار (السلام أمل العالم) ، وهو المؤتمر الخامس من هذا النوع ، وتتبع لقاءات صوفيا تقليد المؤتمرات المناهضة للحرب التي كان يعقدها رجال الثقافة في الثلاثينات في برشلونة ومدريد وباريس .

وقد اجتمع في صوفيا أكثر من مئة وعشرين كاتباً من أربعين بلداً منهم أرسكين كالدويل ، ويانيس ريتسوس ، وجنكيز ايتيماتوف ، وأمريتا بريتام ، واري بازن ..

وفاة الشاعر الأندلسي فيسانتي اليساندي

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

١٩٨٤ - ١٨٩٨

توفي مؤخراً في العاصمة الإسبانية مدريد الشاعر الأندلسي فيسانتي اليساندي عن ستة وثلاثين عاماً ، وكان هو والشاعر رفائيل البيرثي وداماسو الونسو آخر من بقي على قيد الحياة من جيل الـ ٢٧ الذي كان يضم كلاً من : غارثيالوركسا ، وييدروساليناس ، ولويس ثرنودا ، وداماسو الونسو ، وميغيل هرنانديث ، وخورخي غيين .

للشاعر عدة دواوين منها : تدمير الحب ١٩٣٢ ، عالم متوحد ١٩٣٦ ، ظل الفردوس الذي أثار جدلاً واسعاً في الأوساط الإسبانية وغير الإسبانية ، والولادة الأخيرة ١٩٥٣ ، وحكاية القلب ، وقد كتب هذه المجموعة في ثمانين

سنوات ١٩٤٥ - ١٩٥٣

يمتاز شعر فيسانتي اليساندري بغنائية مفرطة ، رف كيف يعري قصيدته للطبيعة الأندلسية الجميلة ، وللروح الأندلسية ، وللبيئة الأندلسية .

نال اليساندري جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٧ .

معرض كبير للكتاب في برشلونه

افتتح في مدينة برشلونه المعرض الثاني (ليبر ١٩٨٤) الخاص بدور النشر والطباعة في إسبانيا ، وترأس حفل الافتتاح رئيس نظام الحكم الذاتي (جودي بوجول) ووزير الثقافة خافيير سولانا ، وعمدة المدينة ، وقد شغل المعرض مساحة ٧٧٠٠ م^٢ واشترك فيه ستة آلاف دار للنشر تنتمي إلى ثلاثين دولة ، وتعتبر برشلونه أول مركز لصناعة الكتب الناطقة بالإسبانية . . . أشار وزير الثقافة في الكلمة التي ألقاها بتلك المناسبة إلى أنه لن تتم الموافقة على حقوق المؤلف إلا بعد أن يتم التفاهم بين الناشرين وباعة الكتب .

أقيمت خلال المعرض عدة ندوات لمناقشة مدى تأثير الفيديو والصحافة على الكتاب والأدب .

الكاتب الأرجنتيني خورخي لويس بورخيس

يزور إشبيلية

تحدث الكاتب الأرجنتيني الضريير خورخي لويس بورخيس في حفل تدشين فصل الدراسة حول الأدب الخيالي الذي نظمته دار النشر (سيرويلا)

في الجامعة الدولية (مينينديث بيلايو) في اشبيلية ، وقد غصت القاعة بالمستمعين الذين حضروا للاستماع إلى هذا المتحدث البارع .

قال بورخيس في معرض حديثه أن الكتابة تعتبر حلماً مخلصاً ، ولا يمكن للكاتب أن يقوم بمهمته على أحسن وجه إذا لم يعتقد ويقتنع بالأسطورة ، والكتابة تتم رغم أنف الكلمات .

ثم تحدث عن الإلهام فقال : قبل أن أكتب لا بد أن أشعر بإحساس يملي علي ما يريد ، وعندئذ فقط أبدأ الكتابة . . . إن المهم في الأدب يكمن في المقدرة على إعطاء أفكار جديدة ، وكلما كان الأدب غير محدد المعالم كلما ابتعد عن المؤلف وشخصيته . . . إن الكتابة هي مسألة تفكير وسماع ، فالمهم هو الإيقاع في العبارات ، وهذا هو سبب صعوبة ترجمة الأدب إلى لغات أخرى ! أما بالنسبة للمرأة فقال : « إنها دائماً حاضرة في حياتي ، وأحياناً أهرب منها عن طريق شغل وفتي بالكتابة إلا أنني لا أحقق هدفي . . . هناك شيء واحد في الأرض لا يمكن التغلب عليه ، ألا وهو الشيطان . . . » . وقال عن المجد الأدبي أنه خطأ جسيم .

وفاة الشاعر الباكستاني

فايز أحمد فايز

توفي في الباكستان الشاعر المعروف فايز أحمد فايز عن ٧٣ عاماً إثر إصابته بنوبة قلبية ، وكان شاعر باكستان الأول الذي يعرفه جيداً قراء مجلة (اللوتس) التي تصدر عن اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا ، وقد زار سورية عدة مرات .

فاز الشاعر بعدة جوائز منها جائزة لينين للسلام ، وكتب شعره بالأوردية والإنكليزية . والجدير بالذكر أن (الأداب الأجنبية) كانت قد نشرت بعض قصائد لفايمن ترجمة الدكتور حسام الخطيب ، رئيس التحرير ، بعنوان (تألفات في دمشق) ، ع ٣٢ ، س ٩ ، آب ١٩٨٢ .

سنغور رئيساً لجمعية المؤلفين

انتخب الرئيس السنغالي السابق والشاعر العالمي المعروف ليوبولد سنغور رئيساً للاتحاد الدولي لجمعيات المؤلفين والملحنين ، وهو الاتحاد الذي عقد مؤتمره العالمي في طوكيو من ١٢ - ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤ .

ARCHIVE

<http://Archive.Saajit.com>

جائزة دولية للسلام

تقديراً ووفاء لدور أنديرا غاندي التاريخي في حياة الهند ، قررت الحكومة الهندية إنشاء جائزة دولية للسلام تحمل اسم السيدة أنديرا غاندي رئيسة الوزراء السابقة التي اغتالها يد التطرف والتعصب في تشرين الثاني عام ١٩٨٤ ، وسوف تمنح هذه الجائزة لمن يعمل في خدمة السلام في أي جزء من العالم .

وفاة الكاتب الإيطالي ادواردو دي فيليو

توفي في روما الكاتب والممثل المسرحي ادواردو دي فيليو الذي يعد من

اشهر الممثلين وكتاب المسرح في إيطاليا عن تمانيه واربعين عاما . من مسرحياته : عيد الأشباح ، عيد الميلاد في بيت كويللو ، عائلي الأشباح ، وقد اقتبست بعض مسرحياته إلى اللغة العربية . ونظراً لتأثيره الكبير في الجمهور فقد كان اختاره الرئيس الإيطالي عام ١٩٨١ ليكون عضواً في مجلس الشيوخ مدى الحياة .

ظهر فيليو على المسرح لأول مرة عندما كان في الرابعة من عمره ، ولم يتوقف عنه خلال فترة دراسته ، ويغلب على مسرحياته تصوير الحياة اليومية في نابولي ، ومن أشهر مسرحياته مسرحية (فيلومينا مارتيرانو) .

قصائد عربية بالإيطالية

صدر في مدينة ميلانو أول مجموعة من الشعر العربي باللغة الإيطالية بعنوان (أبكي أرضي) للشاعر الفلسطيني الطيب خليل مصطفى الذي يقيم في إيطاليا منذ خمس عشرة سنة . كتب مقدمة المجموعة المترجمة وزير الخارجية الإيطالي جوليو اندريوتي .

كتاب بالروسية عن الشعر العربي

صدر في موسكو كتاب (التركيب اللغوي للشعر الغنائي العربي) تأليف المستشرق رادلغابا باريسفانا فرلوا .

وفاة الشاعر الفرنسي هنري ميشو

توفي في باريس الشاعر والرسام الفرنسي هنري ميشو عن ٨٥ عاماً ، وكان قد ولد في بلدة نامور ببلجيكا عام ١٨٩٩ وتجنس بالجنسية الفرنسية عام

١٩٥٤ ، وهو آخر شعراء فرنسا الكبار .

مارس في حياته عدة أعمال ، إلا أنه ركز أخيراً على الشعر والرسم ، نال عام ١٩٦٥ الجائزة الكبرى للاداب إلا أنه رفض استلامها .

جائزة ألمانية للشاعر المكسيكي أوكتافيو باث

حصل الشاعر المكسيكي أوكتافيو باث على جائزة السلام من جمهورية ألمانيا الاتحادية وذلك بمناسبة افتتاح معرض الكتاب في فرانكفورت الذي يتخذ شعار (الأدب أفضل حوار عالمي عبر التاريخ) .

يعتبر أوكتافيو باث (٧٠ سنة) أفضل شاعر وروائي في المكسيك ، وقد عمل في السلك الدبلوماسي ، ومن أشهر أعماله (المنطق العنيف) .

معرض للكتب في بلغراد يوغوسلافيا

أقيمت في بلغراد الدورة التاسعة والعشرون للمعرض العالمي للكتب بمشاركة خمس وخمسين دولة ، وقد تم خلال هذه الدورة إقامة معارض متخصصة للكتب بأنواعها الصغيرة ، وكتب الجيب ، وكذلك المجلات ، وهناك جائزة تمنح في نهاية الدورة تسمى (جائزة بلغراد) منحت عام ١٩٨٤ لموسوعتين هما : موسوعة الفن الفطري ، والموسوعة الاقتصادية .

وذهب إلى يوغوسلافيا ، ولكنه بعد أسبوعين قيل له أنّ عليه أن يدرس اللاتينية ، فقرر الانتقال إلى إيطاليا حيث يوجد له ابن عم . وبدلاً من الدراسة ، أضع السنوات الأولى في التجول في إيطاليا وفي بلدان غريبة أخرى .